عندما تضيع الأمانة

ويشرق الأمل

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما تضيع الأمانة

ويشرق الأمل

شعري

محمد محمود رحال

دار المكتبي

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

الافتـــتـــاح

قال رسول الله ﷺ :

« إذا ضُيّعتِ الأمانةُ فانتظرِ السّاعةَ ، قال : كيفَ إضاعتُها يا رسولَ اللهِ؟ قال : إذا أُسندَ الأمرُ إلى غيرِ أهلهِ فانتظرِ السّاعة » .

[أخرجه البخاري]

* * *

قال رسول الله ﷺ :

« اللهمّ مَنْ وَلِيَ مِن أمْرِ أمّتي شيئاً فشقّ عليهم ؛ فاشقُق عليه ، ومَن وَلِيَ من أمْرِ أمّتي شيئاً فرفقَ بهم ؛ فارفُق به » .

[أخرجه مسلم] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله قاصم الجبابرة ، وساحق المتكبرين ، والمنتقم لعباده الضعفاء والمظلومين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ القائل : « واتق دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب » .

والقائل أيضاً : « ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيّة ، يموتُ يومَ يموت وهو غاشٌّ لرعيته ، إلا حرّم الله عليه الجنة » .

أمّا بعد :

فلو أنّ قوماً استأجروا أجيراً ، فوضعوه راعياً أميناً على مواشيهم ، كي يرعاها ويحفظها من الضياع والهزال والحيوانات المفترسة....... بعد أن أظهر الرجولة والمروءة والشهامة والأمانة.......... ثمّ لم يكن من هذا الراعي ـ بعد أن أحكَمَ قدَمَه ـ إلاّ أن تفرْعَنَ وصار الآمر الناهي ، بعدما حلّ الطاعون بالقوم أهل البلاد والأرزاق.........!! فتركَ الماشية وتناساها حتى ضعُفتْ ، وخانَ العهد ، فأعرضَ عنها حتى غزتها الذئاب والضواري............

لو حدثَ هذا ؛ فهل يُعقل أن يُترك هذا الراعي المجرم في مهمّته ومنصبه يصولُ ويجول ، بحجّةِ أنّ « القَدَر » اختاره فكان في مكانه المناسب ، وأنّ أيَّ حركة لعزله واختيار مَن هو أهلٌ للرعي ؛ سيؤدي إلى فتنة بين أفراد القبيلة المرضى ؟!! .

لا ، . . . . . حتماً هذا هراء وغباء ، لا يقوله إلا كل ضعيف إيمان ، ضعيف عقل ، لا يمكن أن يُستشار أصلاً في قضايا هامّة كهذه ، لأنّ أرزاق القبيلة ومستقبلها معلّقٌ بتلك المواشي والأنعام ، فإنْ أضاعها الراعي وأهملها ؛ فقد ضاعوا جميعاً ، ولصاروا يتسولون على أبواب الكفرة واللئام والمنافقين . . . . !!

إنّ القضية ـ يا قوم ـ خطيرة وتحتاج منّا إلى يقظة وانتباه ، فإنّ الأعداء يُحكِمونَ شِباكهم وقيودهم بكلّ دِقّة ورويّة ، وخبثٍ ودهاء ، . . . . . لا ليحكموا بشريعة الإسلام ، إنّما ليقضوا أولاً على الإسلام وأهله المخلصين ، ثمّ يعيثوا فساداً في الأرض كما تمليه عليهم شهواتهم الحقيرة ، ومآربهم الدنيئة ، وقلوبهم السوداء . . . .

﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[الأعراف : ١٢٨] .

وإنّ اليهود والمشركين والملحدين ، ليسوا بمتقين بنصّ القرآن الكريم والسّنة المطهرة الشريفة ، فأنّى لهم أن يُصلحوا في أرض الله التي لا ينبت فيها إلا الخير والعدل والمساواة والحق والنور؟

وفاقدُ الشيء لا يعطيه . . . .

ما على الشعوب ـ أفراداً وجماعات ـ إلا أن يعودوا إلى الله ، فيغسلوا قلوبهم بماء الشريعة الإسلامية السمحاء ، ويعلنوا الشهادة من قلوب صادقة مستسلمة لتعاليم القرآن الكريم ، وسنّة رسوله محمد ﷺ ، ثمّ تمزّق كلّ الفوارق العرقية والنسبية فيما بينها ، فيرحم الراعي رعيّته ، والكبير الصغير ، والغني الفقير ، والصحيح المريض ، و. . . . .

عندها لا نحتاج إلى فلسفةٍ عقيم ، تملأ صفحات الجرائد وشاشات

التلفــزة ، . . . . ولا إلــى دمــاء بــريئــة تفــوح روائحهــا فــي الطرقات. . . . .

إنّما نكتفي أن نستظلّ جميعاً تحت مظلّة المحبّة الربانية التي تعطينا الدفء والحنان ، والرّقي والاطمئنان. . . . .

محمد محمود رحال

رسالة من طفلتي التي لمْ أرها بعد!!

« الحمدُ لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد :

والدي الغالي ، يا مبعث آمالي ، يا حبي وحناني ، يا بلسم روحي . . . . . . أينَ صوتكَ النديّ الذي لم أسمعه منذ شهور؟ أينَ نغمات حبّكَ التي لم تطرق مسمعي منذ زمن بعيد؟ أينَ قبلات الحنان والعطف والأبوّة التي لثمتني إيّاها وأنا في عالَم الأرحام؟

والدي الغالي ، أنا ابنتكَ التي أتتْ إلى دنيا البلاء والامتحان يوم . . . . . . في الساعة . . . . عام . . . . ، فأرجو الله سبحانه أن يكتبني من الصالحات ، وأن أكون قرّة عينٍ لكَ ولوالدتي التي تنصبّ دموعها على فراقكَ وبعدكَ عنّا .

آهِ يا والدي الحبيب ، فعلاً هذه الدنيا هي دار بلاء ودار عذاب . فأوّل ما واجهني من بلائها : هو أني لم أرَ والدي حتى الآن . . . . . .

لم أرَ مَن أنا فلذةُ كبده ، وثمرة فؤاده . . . . . . فإلى متى يا نور عيني؟ فوردتكَ الجديدة بحاجة إلى حنانكَ وبسماتك . . . . بحاجة إلى حبّكَ ورعايتكَ . . . . أرجوكَ يا والدي . . . . لا تدعني أعيش عيش الأيتام . . . .

والدي الحبيب ، إننا ننتظر قدومكَ على أحرّ من الجمر ، وأدعو الله

سبحانه أن يُوفقكَ ويحميك ويرجعك إلينا سالماً ، ونعيش معاً وتنتهي تلك الغربة المريرة . . . .

والدتي وإخوتي يُقبّلون يديك الطاهرتين . . . . سائلين المولى عزّ وجلّ لك التوفيق والسلامة .

ابنتكَ المشتاقة التي تنتظرك : . . . .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . . . . . يا أغلى من في حياتي » .

❊ ❊ ❊

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم

بُنيّتي الغالية . . . . لقد شممتُ رائحة الحروف التي خرجَتْ من قلبكِ فسطّرتِ بها رسالتكِ ، قبلَ أن تصلني . . . . فرُحتُ أهيىء نفسي كي أستقبلها ، وأرى رسمكِ الجميل فيها ، فأبَتْ عيناي الكرى ، وجفَتْ نفسي شهواتها .

وفي صباح هذا اليوم الجهادي ؛ جاءني الساعي وبشّرني بوصول الرسالة . فمن شدّة فرحي وسروري ، أجزلتُ له الدعاء ، وزدتُ له العطية .

ثمّ وضعتُها في الجيب التي تجاور قلبي وتلامسه ، فكان ذلك اليوم من أيام السعادة التي تُعدّ في حياة الإنسان عدّاً ، وكانت لي مصدر أملٍ وتحمّلٍ لمشاق الغربة وآلام الهجرة ، وكنتُ أعدّ الدقائق والثواني ، وأتمنى انقضاءها كما يتمنى الواجدُ الواله رؤية محبوبه ، والمسافر المهاجر لقيا وطنه وأولاده ! .

وما أن وصلتُ غرفتي النائية ، وخلوتي الهادئة ، وقبلَ أن أُغيّر ملابسي ، وأتناول غدائي ، وأقضي قيلولتي ؛ وضعتُ حقيبتي ، وجلستُ على كرسيّ طاولتي ، وقلبي يكادُ أن يسقط ، وروحي أن تطير . . . . ! .

وما أن وقع بصري على أول كلمة ، حتى انهمرتْ دموعي ممزوجة بالشوق والحبّ والحنين ، وكدتُ أتفطرُ أسىً لهذا المآل الصعب المرير ! .

لكنْ يُعزّيني ـ يا بنيتي ـ أني لستُ وحيداً في هذا السجن النائي البعيد . فأبناء البلد ، بل أبناء الوطن والأمّة ، كلّهم مشتتون مفرّقون مغتربون . . . . !

وما اخترتُ وما اختاروا هذا السبيل إلا رغمَ أُنوفنا ، وغصباً علينا ، عندما سُدّت المنافذ ، وأُوصدتِ الطرق ، وكان آخر الدواء الكيّ !! .

بنيّتي الغالية ، إني أوافقكِ الحبّ والعتاب والدموع ، فالحبّ أعتى من سطوة الجبابرة والطواغيت ، وأقوى بكثير من سياط الجلادين الظالمين . . . .

الحبّ ـ يا بنيّتي ـ ليسَ أرضاً تُسلب ، أو درهماً يُسرق ، أو قصوراً تشيّد ، أو مراكب تُركب ، أو موائد تُفرش ، أو ذهباً يُلبس ، أو . . . .

بل الحبّ أسمى من كلّ ما يعبده الظالمون الحاقدون ، وأعلى وأجلّ من كلّ ما يرنو إليه عُبّاد الدنيا والشهوات . . . . !

الحبّ ـ يا بنيّتي ـ أقوى شيء في هذا الوجود ، فلولا الحبّ ؛ لَمَا صبر السجينُ في بلاد الغربة عن وطنه وأهله وعياله!

ولولا الحبّ لَمَا ابتسم الفقير المسكين وأولاده ، عندما يعودُ إليهم في نهاية النهار حاملاً في يده رغيف الخبز ليطعمهم ما يسدّ به رمقهم!

ولولا الحبّ ، ما تجافتْ جُنُوبُ العابدين عن مضاجعها في هزيع الليل الأخير والناس نيام ، ليقفوا بين يدي ربهم بكلّ ذلّ وخضوع ، يبكون حالهم وحال الإسلام والمسلمين!! .

ولولا الحبّ ، لَما ودّع المجاهد أمّه التي ولدته ، وأباه الذي ربّاه ، وزوجه التي أحبّها ، وأطفاله الذين تعلّقوا به ، وتعلّق بهم ، ليذهب إلى ساحات الوغى ، بين أزيز الرصاص ، وشخير المجنزرات ، ولهيب

المتفجرات ، وصواعق الصواريخ ، ولسان حاله ومقاله ينطقُ : « يا ربّ ، تركتُ أهلي وعيالي عهدةً في رعايتكَ وسترك ورحمتك ، فاقبضني شهيداً ، فتلك أمنية المحبين ، وغاية العاشقين »! .

أجلْ يا بنيتي ، يُعزّينا أنّ إخواناً لنا ، علماء مجاهدين ، أذكياء ملهمين ، شجعان صابرين ، فعلوا أكثر ممّا نحن فيه ، ويفعلون . هجروا مُهجهُم وفلذات أكبادهم في البراري والقفار ، إنْ وجدوا الغطاء ؛ لا يجدون الطعام ، وإن وجدوا الطعام ؛ يعزّ عليهم الشراب ، وإن توفّر الشراب ؛ عُدموا الدواء ، و. . . . . !! .

واعلمي يا بنيّتي الغالية ، أن الشقاء الذي يعيشه النائي عن وطنه وعياله ، والآلام التي تنتابه ، والبؤس الذي يحوطه من كلّ جانب ؛ ما هو إلاّ رمادٌ خفيف متراكم ، يتبعثر كلّما هبّتْ عليه نسائم « الحبّ » الصادق ، فينجلي عن قلبٍ متوقدٍ يشعّ إيماناً ويقيناً! .

لَكَمْ تمنيتُ يا طفلتي الحبيبة أن أقرأ من أولادي ، كما يتمنى كلّ والدٍ ووالدة ، فكنتُ ووالدتكِ نكتبُ في رسائلنا عن ذلك اليوم الذي يشاركنا أولادنا فيه التساقي من كؤوس المحبة لاحقاً ، كما تساقيناها سابقاً ، ويظلّ يسمو بنا الخيال في تلك الليالي الخريفية الحزينة ؛ حتى نتخيلُ بأنكم حقائق بيننا ، فنسمع أصواتكم في نوح الحمائم ، وتغريد الطيور ، ونرى نظراتكم في تلك النجوم اللامعة والكواكب السيارة ، ونشعر بحركاتكم حولنا ومناغاتكم في حفيف الأوراق التي تلعب بها نسائم الليل العليلة !! .

ثمّ نتركُ لخيالنا العنان في تصوّره ، ولنفسنا في سموّها ، ولقلبنا في حبّه . . . . فإذا ما نادى منادي الصباح ؛ قمنا إلى محرابنا ، فكللنا تلك الأماني والأحلام ؛ بدموع العبودية والاستسلام ! .

لو كانت السعادةُ يا بنيّتي شبحاً ؛ لاغتاله الإنسان وهو رضيع ، ولقضى عليه ومزّقه ورماه لتأكله النيران ، كلّ ذلك حتى لا ينعمَ الآخرون ويفرحون ، ويتمتعون ويضحكون ! حسداً وحقداً وفجوراً وضلالاً ! .

قد يستطيعُ الإنسانُ أن يُبعدني عن وطني وأرضي وترابي ، وهوائي ومائي وجبالي !

وقد يستطيع الإنسان أن يُفرق بيني وبين الهيكل البشريّ الذي أحببته ، وملأتْ عينيّ بمنظره وسحره وجماله !

وقد يستطيع الإنسان ـ عديم المشاعر والأحاسيس ـ أن يحملني من شرق الأرض إلى مغربها كيلا يرى ابتسامة ثغري ، وسعادتي وبشري عندما أحتضن أطفالي وأضمهم إلى صدري ! . . . . . . لكنه أعجز من أن ينتزع الحبّ الصادق الذي وهبه الله تعالى الفقراء والضعفاء ، فقبلوه ورعوه بدموع مآقيهم ، وآهات قلوبهم ، ما وسما حتى سئمتْ نفوسهم الأشباح والتفاخر ، والزينة والتناحر ، فضلاً عن أكل الأموال بالباطل والحرام ، وانعدام الضمير وقطع الأرحام! .

أجل بنيّتي الغالية ، إنّ الأمانة إذا ضاعت في أرض الله ، وغُيّبَتْ وراء القضبان ، وفي زنازين الكفرة الفجرة ؛ فإنّ أوّل الضحايا هي الفضائل ، والقيم ، فإذا اضمحلّت الفضائل ، وانقلبت القيم ؛ اختلّ نظام الحياة بفعل الإنسان الحقير ، فكان ذلك نبأ عقابٍ نازلٍ ، أو ذل قادم ، وقد يكون من أخسّ أمّة ، وأنذل شعب عرفه التاريخ ، . . . . . وها هم « اليهود » ومَن هاودهم وناصرهم ، يجوبون في أرض الله الطاهرة ، وكأنهم « شعب الله المختار »!! .

إنّ من حقكِ يا بنيّتي أن تعيشي تحت أنظار والدكِ ، وأن يعيش كلّ الأطفال بين آبائهم وأمهاتهم ، لكن ليس من حقّنا أن نعيش بين الذلّ

والفقر والاضطهاد! ليس من حقنا أن نركنَ لواقعٍ تُذبحُ فيه الأخلاق والمبادىء ، وتُهان فيه الكرامات ، فيعلو الوضيع ، ويوضع العالي الرفيع !! .

لذا كان واجباً علينا أن نتعلمَ وأولادنا التضحية من أول استهلالةٍ نرى فيها الوجود الدنيوي . . . . . . تضحيةً نُؤجرُ عليها بإذن الكريم الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه . . . . . . تضحية خالصة صادقة تكون ماءً فراتاً لفسائل الحق والفضيلة في أرض الإسلام ، . . . . . لأنه من دون تضحية من المؤمنين بالله ربّاً ، وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً ، وبالقرآن منهجاً ودستوراً ؛ سيلفظُ العدلُ أنفاسه الأخيرة ، وتضيع المروءة في شريعة الغاب ، ويصير « لكع بن لكع » (أي : اللئيم والأحمق والوسِخ) رئيس الناس وقائدهم ، وسينتشر الذل والعار ، والظلم والدمار ، والغباء والضرار . . . . . !! .

ولا أنس ذلك الموقف المؤثر الذي وُلِدَ نتيجة الذّل والنفاق والضعف وقلّة الإيمان ، والحماقة والشنآن (البغض والكراهية) ، ذلك عندما شاهد مدير إحدى مدارس التربية والتعليم في بلد من البلاد العربية المرموقة ، أحد المدرسين العرب الوافدين « كما يُسمّونهم » في حصّة فراغ ، يُمسكُ قلماً ، وأمامه ورقة يكتب عليها ، فاقترب منه المدير ، فوجده يكتب رسالة إلى أولاده يحثهم فيها على الصبر والمثابرة في دراستهم ، ويطمئنهم عن حال ، أنّ موعد اللقاء بينهم قد اقترب ، . . . . . . فثار ذلك المدير ، وهاج عليه كالثور ، قائلاً : (نحن جايبينكم إلى بلادنا حتى تكتبوا رسائل وتأخذوا أموالنا ، هكذا « بلاش »؟ هذه مدرسة « بوي » لازم يكون كل عملكم لصالح بلدنا ، « مو حق بلادكم وولادكم »!!) .

فسكتَ ذلك المسكين مذلولاً مهاناً ، وهو يقول له : (حاضر يا بيه ، حاضر يا بيه ، يصير إلّي يرضيك!!) .

نعم يا بنيّتي فهذا غيضٌ من فيض ، وإنها لحقائق يندى لها الجبين ، فأرجوكِ ألا تؤاخذيني على هذا الكلام المزعج والمقزز ، لأنّ « الغربة » يا حبيبتي ، تعلّمُ الذلّ والصّغار على أصوله وبكامل فنونه ، فيبقى أحدنا ذليلاً خانعاً خاضعاً ، حتى ولو عاد إلى موطنه بعد حين!! .

وهكذا تعيش أمّة العرب كالخراف ، فإذا ما داهمهم عدوّ ؛ احتضنوه من دون مواجهة أو قتال ، بل ربّما كان « الغيث المنتظَر » بالنسبة لهم ، لأنّ الذي ماتت كرامته ؛ تموتُ شهامته ورجولته . . . . . !! .

كان الله في عوننا يا بنيّتي ، لأنه إذا لم تتداركنا رحمة الله ورعايته ؛ فلسوف نكون ألعوبة مهانة عند شرار الخلق ، وفسّاق الدّهر مدى السنين!

لو ضاع من أحدنا درهمٌ ، أو فقدنا فلساً ، لأبتْ عيوننا الكرى ، وإذا أضعنا المقدسات والبلاد ؛ ننام ملء جفوننا ، وكأنّ الأمر لا يعنينا ، بل يزعجنا كلّ مَن ينادي « بالجهاد » في سبيل الله !! .

أترى يتركنا الله لقلوب أدمنت الذلّ والعار ، والخسّة والجبن ، أمْ يُنزل علينا عقوبة تهلكنا أجمعين ، ويأتي بقومٍ يحبهم ويحبونه ، أذلّةٍ على المؤمنين ، أعزّة على الكافرين ؟!! .

إنّ الأمل يا بنيّتي ما زال يحدو بنا ، رغم الجراح وموت الضمير ؛ لأنّ أمّة الحبيب المصطفى ﷺ أمّة خير وقوّة ، أمّة اختار الله رسوله منها ليكون خاتم النبيين ، واختار هذه البلاد فكانت مهبط الرسالات ، ومنبع الأولياء والأتقياء الذين يتولاهم الله بالحفظ والعناية ، فيكون على أيديهم سقوط أملاك الفراعنة والأباطرة والأنذال . . . .

فتشرق الأرض بنور الإيمان ، ويعمّ العدل والرخاء ، عندها نستغني عن الغربة والذلّ ، وننعم بينكم يا أطفالنا ، ونراكم بيننا كالأزاهير المفتحة. . . . . نلعب ونمرح ونضحك ونتعلم ونعبد ربّنا حتى يأتينا اليقين. . . . . فإذا أدركنا الموت ونحن نعيش في الأمنيات ؛ فالله نرجو ألا يُفرّق بيننا في جنّاته ، ومع حبيبه المجتبى ﷺ ، آمــين .

* * *

الشهيد عبد الله عزّام

(توجّه الشيخ الدّاعية المجاهد « عبد الله عزّام » الساعة ١٢/٢٠ من يوم الجمعة في ٢٦ ربيع الآخر ١٤١٠هـ ، الموافق ٢٤ تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٨٩م ، إلى مسجد الشهداء لأداء صلاة الجمعة .

كان ـ رحمه الله ـ قد اغتسل غسل الجمعة ، وجلس مع أبنائه لتلاوة القرآن ، وانتظروا « أبا الحارث » ليأخذهم كالعادة في سيارته .

ولكنه تأخّر ، فرغب ولداه أن يصطحباه بسيارةٍ لم يسبق له أن استخدمها . كان ولداه : محمد ، وهو نجله الأكبر ، وعمره « ٢٠ » سنة ، وإبراهيم ، وعمره « ١٥ » سنة ، قد وصلا قبل أيام من الأردن .

فأحبّ والدهما أن يستجيب لرغبتهما ، فاصطحباه في السيارة . قاد السيارة نجله « محمد » ، وسار في طريق معاكس لاتجاه المرور في شارع « حمرود » . وقبل أن تتجه السيارة إلى اليمين لتدخل في الطريق الفرعي المؤدي إلى المسجد ؛ في هذه اللحظة انفجرت عبوة ناسفة كانت قد أُعدّت قبل أيام من وقوع الحادث ، وكانت تحتوي على (٢٠) كيلو غراماً من المواد المتفجرة . ولم يكن قد مضى على خروجهم من البيت خمس دقائق تقريباً .

دوّى الانفجار على مدى يزيد قطره على كيلو متر تقريباً ، سمعتْ زوجته صوت الانفجار ، فأحسّتْ أنّ في الأمر شيئاً ، وطلبتْ من ابنها

« حذيفة » أن يلحق بوالده ليرى هل أصابه شيء ، وفزع المصلّون الذين كانوا ينتظرون في المسجد .

تقطّعتْ السيارة بسبب قوة الانفجار إلى ثلاثة أجزاء ، وعُجنت عجناً ، وتناثرتْ أشلاء « محمد » إلى مسافة تزيد عن (١٠٠) متر ، وتناثرت أشلاء « إبراهيم » إلى مسافة تزيد عن (٦٠) متراً ، وعلقتْ قدمه وبعض أشلائه على أسلاك الكهرباء! .

أمّا جسد الشيخ ، فلم يُصبه أذى ظاهري ، ولكن يبدو أنه حدث نزيف داخلي أدّى إلى الوفاة . نُقلَ الشيخ إلى المستشفى وفارق الحياة قبلَ وصوله .

جُمعتْ أشلاء نجليه ، ونُقل الثلاثة إلى قرية « بابي » ، وبعد صلاة المغرب من اليوم نفسه صلّى الحضور عليهم ، ثمّ نُقلوا إلى مقبرة الشهداء بقرية « بابي » ودُفنوا هناك! .

كان ـ رحمه الله ـ يتحدّث في الفترة الأخيرة قبل الحادث ؛ بأنه يتوقع المؤامرات من مثل هذه ، وبأنه يطلب الشهادة ، وأنّ الآجال محدودة ، وأنّ قضاء الله لا رادّ له .

رحمكَ الله يا عبد الله ، ورحمَ نجليكَ ، وتقبّلكم شهداء في جنّته ، ورفع درجاتكم ومنزلتكم .

كانت هذه هي التجربة الأخيرة للفقيد في « أفغانستان » ، ولكنها تجربة حملت الحصاد الحلو ، والجنى الغني بإذن الله)[1] .

نعم ، هكذا همْ رجالُ الإسلام ، وهؤلاء هم الذين وصفهم الله في

---

(١) من كتاب : « عبد الله عزام أحداث ومواقف » : د ـ عدنان علي رضا النحوي .

كتابه المجيد : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فما أعظمكم أيها الرجال الربانيون! يا مَن تحيَوْنَ لله ، وتموتونَ حبّاً للقاء الله ، فتعيشون سعداء ، وتلقونَ الله فرحينَ بما آتاكُم من فضله!! .

آهٍ لو يعلمُ الناس فضلكم عليهم ، ومكانتكم في الدنيا والآخرة ؛ إذاً لحَذَوْا حذوكم ، ولساروا على دربكم ، ولامتطوا ظهور الجياد الفاتحة ، يخترقون الآفاق بإيمانهم ، ويُطهّرون البلاد من رجس الأعادي ، ومكر الكافرين ، وخبث السّفلة والمنحطّين! .

لو يعلم الناس أنّكم الرجال الذين اصطفاكم الله تعالى من بينهم لتكونوا منارات هداية ، وجبال إنقاذ ، وأمّهات عطف وحنان ؛ لأعلَوا مقامكم ، وبجّلوا أشخاصكم ، واقتدوا بأعمالكم ، ورهنوا حياتهم وأولادهم ليَصِلوا إلى ما وصلتم ، وليُتمّوا ما بدأتم. . . . . !! .

أيّها « الشهداء » الأفاضل ، هنيئاً لكم مقامكم عند ربّكم ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر : ٥٤ـ٥٥] .

هنيئاً لكم أنّكم لا تمرّون بقبرٍ ، ولا حساب ولا عقاب ، بل منزلتكم أعظم من هذا بكثير ، ورتبتكم لا تدانيها مرتبة ، ولا تساويها مكانة .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. . . . . ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وجزاكم الله كلّ خير على بَذلِكُم نفوسكم ودماءكم طاهرة زكية في سبيل الله ولله قبل كلّ شيء ، لِعِلْمكم ويقينكم أنّ المحافظة على إسلامنا وبلادنا وأعراضنا وأموالنا ، لا تكون إلا بالفداء والتضحية بالغالي والنفيس .

وهل هنالك أغلى من الروح ؟ فها أنتم تُقدّمونها رخيصةً ليحيا الحقّ والعدل والإيمان ، ولتُشرقَ شمسُ السعادة على المساكين والبؤساء والفقراء والكادحين ، الذينَ أضناهم البعد عن منهج الله ، وفجعتهم الغربة الإيمانية عن السعادة والراحة والأمان ، فضحكوا عليهم وخدعوهم بالأفكار الغربية ، والنظريات الشرقية ، والخزعبلات المزيّفة ، يوم قالوا لهم : قاتلوا وجوعوا ، واصبروا وموتوا و. . . . . باسم الشعب ، وباسم الأرض والمال والوطن ، لا باسم « الإسلام »!! .

فكبّوا على وجوههم ، وذاقوا الويلات ، واستيقظت الشعوب على طامّةٍ كبرى ، ومصيبة عظمى ، عندما وجدوا أنفسهم كفقراء اليهود ، لا دنيا ولا آخرة!! .

أيها الشهداء في سبيل الله والإسلام ؛ إنّ حبّنا لكم كبير ، واقتداءنا بكم منير ، ودعاءنا لكم في كلّ وقتٍ وحين ، ولكنْ. . . . . لا تنسونا أحبّتنا عند الله ، أخبروه ـ وهو أعلم ـ أنّ من أمّة محمد ﷺ أناساً يحبون اللحاق بنا والوصول إلينا لمرافقتنا والجلوس معنا ، فقراء مالٍ ، لكنّهم أغنياء حبٍّ وإيمان ، وشوقٍ وحنان ، ضعفاء أجساد ، لكنهم أقوياء عزيمة ، وعلاة همّة .

سامحونا على تقصيرنا ، فالتقصيرُ من صفاتنا ، ويعذرنا أننا بشرٌ نُصيبُ ونخطىء ، نقوى ونضعف ، لكنّ النوايا صادقة ، والحبّ عظيم ، وما نظنّ بالله إلا خيراً .

سيدي « أبا محمد » ، صحيح أننا لم نركَ ، ولم نجتمع بكَ ، ولم يكن لنا لقاءٌ في هذه الدار الفانية ، لكنْ يعلمُ الله أنّنا نحبّكَ في الله. . . . . ونبكيكَ في الله. . . . . ونجلّكَ ونخلّدُ ذكراكَ لله وفي الله ! .

وإذا كان الله تعالى لا ينظر إلى الصوَر والأجسام ، إنّما ينظر إلى القلوب التي في الصدور ـ كما أخبر حبيبنا ورسولنا محمد ﷺ ـ فإنّا نبكي اليومَ قلبك الطاهر النقي ، وفكرك الثاقب الذكي ، ونفسكَ الزكيّة المحبّة ، وهمّتكَ العالية السامية . . . . ! ! .

لقد رأيتَ النورَ فنهلتَ منه وشربت ، فكانت مساعيكَ بالنور وإلى النور والحق ، يومَ وصفكَ الجبناء المتقاعسونَ ؛ بالتهوّر والضلال .

ولا تثريبَ على الجهلاء والضعفاء ؛ لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه ، ومن ذاق عرف ، ومَنْ لم يذق ؛ لم يعرف ، بل يبقى في ذلّ الجهالة أبد الدهر ! .

لقد ذقتَ ـ يا سيدي وحبيبي ـ طعمَ الإيمان الخالص ، والحبّ الصادق ، فجعلتَ من هذه الدنيا الفانية مطيّة لحياة الخلود والنعيم المقيم ، وهكذا يفعل الرجال العقلاء .

لقد درستَ وتعلّمتَ وفقهتَ ، فكان العملُ شعارك ، والإخلاص رائدك ، وإن واجهتْك العقبات ومنغّصات الحياة وأكدارها .

ليس هذا فحسب ؛ بل عشتَ في هذه الحياة بعزيمة العظماء ، وهمّة الأبطال ، وتواضع العلماء الأتقياء ، وحنين المحبين والشعراء ، فأحبّكَ الله ، وأحبّتكَ ملائكته وعباده الصالحوين . . . .

عشتَ وكان محمد رسول الله ﷺ قدوتك الحسنة ، وصحابته الكرام أسوتك المكرّمة ، فأخذتَ من رحمة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ورقّة أبي بكر رضي الله عنه ، وشجاعة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وسماحة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وفروسية علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فكنتَ نبراس عصرك ، وقائد زمانك ، ورجُل المواقف والمحن .

وإني لأنظرُ إليكَ وأنتَ واضعٌ رأسك بين كفّيكَ ، والدموع تسيل على وجنتيك ، وفي قلبك هموم البلاد الإسلامية التي تنوء عن حملها الجبال ، ومع كلّ هذا يحدوك أمل النّصر والفَرَج أكثر من كلّ الذين يُصدّرون أنفسهم لحمل أمانة النهوض بأمّة العرب والإسلام .

أرنو إليكَ وأنت تنظر إلى الشباب يلهون ويلعبون ، وينحرون أوقاتهم وأيامهم وبالتفاهات يفتخرون ،ولسان حالك يقول ويلهج بالدعاء : يا رب ثبتنا على دينك وإسلامك ، يا رب اهد شباب المسلمين إلى صراطك المستقيم ، وأنِرْ لهم عقولهم وقلوبهم حتى يروا الحياة على حقيقتها ، يا رب إن رزقتني شباباً ؛ فسأجعلهم في سبيلك ورضاك . . . . .

وها قد استجاب الله لك دعاءك الأخير ، فكان (محمد وإبراهيم وحذيفة) فشاركتهم معك في الحروب وهم في مرحلة الزهور ، فحملت الطيورُ الزهورَ وذهبت بها إلى هناك . . . . . . حيث (لا عَينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمعَتْ ولا خطرَ على قلبِ بشَرٍ)[1] .

صبراً يا « أمّ محمد » ، وصبراً « آل عزّام » ، فإنّ موعدكم الجنة ، وهناك الملتقى والمستقر . . . .

جزاكم الله عنّا وعن المسلمين خير الجزاء ، وأعظمَ لكم الأجر والمثوبة ، وجعلكم قدوةً وهداةً للضائعين الحائرين ، آمين يا ربّ العالمين .

وإني ـ يا حبيبي يا أبا محمد ـ لأهديكَ بعضاً من الأبيات التي قالها الحبيب الصحابي الجليل « عبد الله بن رواحة » يبكي الشهيد الصحابي

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

« حمزة بن عبد المطلب » رضي الله عنهما ، حيث قال[١] :

بكتْ عيني وحقّ لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويلُ
على أسدِ الإله غداة قالوا ... أحمزة ذاكمُ الرجل القتيلُ
أُصيبَ المسلمون به جميعاً ... هناك ، وقد أُصيبَ به الرسولُ
أبا يعلى لكَ الأركان هدّت ... وأنتَ الماجدُ البرّ الوَصولُ
عليكَ سلامُ ربّكَ في جِنانٍ ... مخالطها نعيمٌ لا يزولُ
ألا مَن مُبلغٌ عنّي لؤيّاً ... فبعدَ اليوم دائلةٌ تدولُ
وقبلَ اليوم ما عرفوا وذاقوا ... وقائعنا بها يُشفى الغليلُ
نسيتمْ ضربنا بقليب بدرٍ ... غداةَ أتاكمُ الموتُ العجيلُ
غداةَ ثوى أبو جهلٍ صريعاً ... عليه الطير حائمةٌ تجولُ
وعتبة وابنه خرّا جميعاً ... وشيبة عضّه السيفُ الصقيلُ

* * *

(١) تفسير القرطبي : ج٤ ، ص : ١٨٨ .

صمود وإباء وبكاء[1]

(هذه هي قصة الفتاة الفلسطينية « سعاد حلمي غزال » ١٧ عاماً ، من قرية « سالم » قرب « نابلس » ، اعتقلت بتاريخ : ١٣/ ١٢/ ١٩٩٢م ، وعمرها ١٥ عاماً آنذاك ، وذلك بتهمة محاولة طعن إحدى اليهوديات المستوطنات ، وعُذبت عذاباً شديداً ، ثمُ حُكم عليها بالسجن ست سنوات ونصف) .

سنتان من العنت والقهر في الزنازين المعتمة.......... سنتان قضتهما مع العذاب والأسى......... جسدها الضعيف تحمّل كل تلك السياط الملتهبة............ ظلّتْ صامدة بالرغم من الكيّ والضرب بالعصي طيلة هذه المدة.......... آثار أحذيتهم الغليظة على جسدها لا زالت تُذكّرها بهمجيتهم وسوء طويتهم..........

تنهّدتْ وأرسلتْ زفيراً حاراً يُعبّر عن المرارة التي تعيشها في سجنها البغيض........... آآآآآهـ...... ماذا تركتم من فنون الإذلال لامرأة ضعيفة مثلي......... ؟!! ماذا نسيتم من أساليب القهر لم تصبوها على جسدي المتهالك ؟!!

وبعد كل هذا الذي فعلتموه..... هل أطفأتم شهوة الانتقام المتأججة في صدوركم العفنة؟!! هل شفيتم غليل أحقادكم المتراكمة؟!!

---

(١) مقتبسة من مجلة « الشقائق » العدد : ٤٩ ، تحت عنوان :« هزمتهم جرأتها....!! قصة واقعية من وحي الانتفاضة » بقلم : عبد الناصر محمد مغنم .

هل شعرتم بزهو الانتصار وأنتم تسلّطون كلابكم القذرة على فتاة ضعيفة خائرة القوى لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها..........

يا ويحكم............ أيّ الرجال تكونون؟!! بل أي الوحوش التي لا تعرف الرحمة أنتم؟!! أنذال فجرة.......... ؟!

كلماتٌ حرّى اشتعلت في خاطرها ، وودت لو تقذف بها في وجوههم الكالحة........

تسللت الدموع البريئة لتجلل المأساة التي رُسمت على ملامح وجهها البائس......تبكي بألم وحرقة...... تحاول إخفاء دموعها بكلتا يديها المكبلتين بالأغلال........

مشت تتهادى بين كتيبة من المجندات ؛ اللاتي أمسكن بذراعيها دافعات بها نحو قفص الاتهام في قاعة المحكمة العسكرية البغيضة التابعة للمعتقل.........

سارت بينهن بخطى مثقلة ، تتعثر بسبب الأغلال التي اعتصرت معصميها الضعيفين......... حطم صوت السلاسل سكون القاعة وبهوها الشيطاني...... نظرت بعينين ذابلتين حولها...... رفعت رأسها شامخة بالرغم من ضعفها وشعورها بالدوار......

وقفت بين أربع مجندات غليظات أحطن بها كالسوار في المعصم...... نظرت إلى الجنود المدججين ؛ الذين اصطفوا يميناً وشمالاً يحدقون بها وقد تملّكتهم الدهشة...... شعرت بأنها أمام أشباه رجال لا يَزِنونَ جناح بعوضة..... تمتمت بصوت خافت منبعث من قلبٍ مكسور...... صبراً يا قتلة...... يومكم قادم لا مفر منه...... جلست في قفص الاتهام تنتظر ما سَتُسْفِر عنه هذه المحكمة الهزلية...... هزت رأسها وهي تفكر بهذه المحاكمة.........

أيُّ محكمة هذه؟......... بل أي حكم يمكن أن ينطق به هؤلاء الظلمة؟......... ماذا أنتظر غير الخيبة والظلم والهوان...... يسود صمتٌ خانق بانتظار ولوج قضاة المحكمة.....

يشق الصمت زعيق بوابة خشبية كبيرة تُفتح على مصراعيها..... يدخل ثلاثة من القضاة العسكريين حولهم بعض الجنود........ يعتلُون المنصة..... ينظر بعضهم إلى بعض....... يبتسمون ابتسامات ساخرة.... يتلفت أحدهم نحوها..... ينزع نظارته عن عينيه الجاحظتين.....

هيه.... « سعاد حلمي غزال » هذا هو اسمك أليس كذلك؟ تنظر إليه نظرة احتقار وتظل صامتة.....!! يهز رأسه..... حسناً..... لقد هاجمتِ إحدى المجندات بالقرب من مستوطنة « شافي شمرون » أثناء وقوفها على الشارع الرئيسي ، وحاولتِ طعنها بالسكين...... أليس كذلك؟ (بسخرية مبطنة) .

تُعرض عنه وتغضّ طرفها استهانة بما يقول...... يُظهر الضيق والحرج...... يصرخ.... أجيبي عن السؤال.....!! تلتفت نحوه وعيناها تقذفان بالشرر........ نعم... فعلتُ ذلك.... لكنني أخطأت...... يبتسم القاضي...... إذاً تعترفين بخطئك..... نعم..... أخطأتُ إذ لم أقتلها..... ينظر إليها القاضي بدهشة...... يشعر بالحرج...... ماذا....؟ كنتِ تريدين قتلها؟...... ولماذا أيتها المتطرفة؟........ تنهض واقفة وقد تملّكها الغضب..... تصرخ في وجهه...... غريبٌ أن أقتلها أليس كذلك؟!! أمّا أنتم فمن حقكم قتل الناس!!

أجيبي عن سؤالي باختصار....... لماذا حاولت قتلها؟.....

قبل أن أطعنها بيوم واحد ، هاجم جنودك قريتنا ، خربوا ودمّروا وعاثوا فيها فساداً...... هدّموا منازل عدة.......... كان من بينها منزلنا...... قتلوا أخي الأصغر.......... كان برفقتهم جماعة من المستوطنين ، وكانت هذه المرأة التي حاولتُ قتلها من بينهم.......... فعلَتْ أشياء كثيرة.......... أهانت أمي وأهانتني......

يتململ بحنق...... يضرب بمطرقته على الطاولة......... كفى..... كفى..... تصمت وتنتظر.......... يتمتم بغيظ........ أيّة فتاةٍ تكون هذه.......... يالها من جرأة!!...... يقلب الأوراق...... يهمس في أذن نائبه...... يتنهد بضيق... حسناً.... رُفعت الجلسة.......... ينهض ويولي هو ومن معه...... يسود القاعة صمتٌ رهيب......... تُشرق عينا « سعاد » ترفع رأسها وتنظر حولها...... عيونهم جاحظة تنظر إليها بدهشة........ ويْحهم لماذا ينظرون إليّ هكذا........ ماذا يريدون مني؟...... تشعر بدهشتهم منها.......... تستعيد ما قالته للقاضي........ تحسّ بأنها ألقمته حجراً..... يقطع حبل تفكيرها صوت زعيق الباب الخشبي وهو يُفتح........ يدخل القضاة في عنجهية عسكرية......... يجلسون خلف المنصة........ يتهامسون .

تظهر ابتسامات ساخرة على وجوههم وهم يرمقون « سعاد »........ يُقلب أحدهم أوراقاً أمامه.......... يرتدي نظارته........ يضرب بمطرقته على الطاولة........ينصتُ الجميع........ تنهض « سعاد » لسماع الحُكم......

بناءً على ما تقدم. . . . . ونظراً لاعتراف المتهمة بجريمتها بالاعتداء بالطعن على المجندة ؛ فقد حكمت المحكمة على المتهمة « سعاد حلمي غزال » بالسجن لمدة ست سنوات ونصف مع التنفيذ. . . . . رُفعت الجلسة. . . . . .

تصرخ « سعاد » بأعلى صوتها. . . . . الله أكبر. . . . . . . الله أكبر. . . . . تُخرج مصحفاً من جيبها. . . . . ترفعه عالياً. . . . . . تهتف بصوت مرتفع. . . . . الحكم لله ، والبقاء لله ، وسوف ينتقم الله منكم يا أوغاد. . . . . نعم سينتقم الله منكم يا أوغاد. . . . . يقف القضاة في ذهول. . . . . يحدث لغط في القاعة ، تلتفت نحوهم وقد بدا عليها الغضب. . . . .

أمّا أنتم. . . . . أمّا أنتم يا جبناء فلكم هذه. . . . . وتبصق في وجوههم بقوة. . . . . .تصرخ في وجه الجنود حولها. . . . . جبناءُ أنذال. . . . . لا تجرؤون حتى على مواجهة النساء. . . . . . . سيأتي اليوم الذي نفنيكم فيه بإذن الله. . . . . سوف ترون أيها اليهود. . . . . !!!

تمسك بها المجندات. . . . . تحاول إحداهن إسكاتها بتكميم فمها. . . . . . تصرخ. . . . . سنواتٌ معدودة وسأعود. . . . . . سأعود يا قتلة. . . . . سأعود للطعن من جديد. . . . . . لن نخافكم بعد اليوم. . . . . . ترفع رأسها عالياً وتشمخ بروح الإباء. . . . . تلهج بالدعاء. . . . . إلى الله أشكو. . . . . . إليه وحده دون سواه. . . . . يا ربّ أنت ولي المستضعفين وناصرهم. . . . . . أنت ملاذنا يا الله. . . . . !!

* * *

« ماكدونالدز » وأسواق الملابس

الناس على دين ملوكهم ، والناس أتباع أهوائهم وعُبّاد شهواتهم ونزواتهم ، إلا من رحم ربي !! .

وعندما يكون المجتمع في تلك الحالة الضبابية المأساوية ؛ فإنّ عملية الإصلاح تكون شاقّة وعسيرة ، فتحتاج إلى تضحياتٍ لا يستطيعها إلا مَن كان له قلبٌ مؤمن معلّقٌ بالله متوكلٌ عليه ، لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا سطوة حاكم ، وإن اتهمه الرعاع والعوام بالتخلف والتعقيد ، والجنون والتنكيد ، والرجعية والتبلد !! .

كان « العرب » في جاهليتهم قد انحرفوا عن الطريق الصحيح ؛ فتاهوا وضاعوا ، وانتشرت فيهم الأمراض التي مزّقت وحدتهم ، وفرّقت عصبتهم ، وربما تقاتلوا على بعير أجرب عشرات السنين. . . . !! .

ولمّا بعث الله تعالى منهم رسولاً مصطفى ، ومصلحاً مجتبى ، وداعية مُنقذاً ؛ رموه بأقبح ما في قلوبهم ، وأسود ما في عقولهم !! .

غير أنّ الثبات على العقيدة والمبدأ ، والاعتماد الخالص على الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية ، والتضحية بالنفس والمال وثواني الحياة ؛ جعل النصر حليفه ﷺ ، والغلبة قرينه ، والنجاح كتابه ، والفوز رايته !! .

وإنّ ما تعيشه الأمّة العربية والإسلامية الآن من اضطراب وفوضى وعدم وضوح في المعالم والآثار ؛ لَيَبعث في النفس الألم والحسرة

والحزن والبكاء على أمّة ترى النور وتصرف وجهها عنه ، ومعها الحق ؛ فتتقاعس عن الأخذ به وتعاطيه ونشره !! .

أمّةٌ فيها من مقومات النهوض وأسباب العزّة ما لا يوجد في أمّة حتى قيام الساعة ، ومع هذا فأفرادها أَلِفوا الكسل والخمول ، وركنوا إلى دنيا زائلة ، وشهوة فانية !! .

حتى التزامنا بالدين أصبح تقليدياً وراثياً ، بدل أن يكون التزام علمٍ وفقه وحبّ للإسلام الذي رَفَعَنا إلى المعالي والقمم ، بعد أن كنّا في جاهلية!! .

هذا ، فضلاً عن ظهور أحزابٍ وطوائف ظهرت في جسد الأمّة الإسلامية « كالثآليل » التي تخرج في الجسم السليم فتُضعفه وتهزله ، فانتشرت تخرّب خلاياه ، وتتلف أنسجته ، وتشوّه منظره ، وتقضي على مناعته وقوته ! .

تخرّجتْ تلك الأجيال وظهرت ، وهي تظنّ أنّ مفتاح النهوض والقيام بهذه الأمّة من جديد ؛ بيدها ، وإذا بالذلّ يزداد ، والفقر يعمّ ، والجهل ينتشر ، وإذا بماء وجه الأمّة العربية يغور ، ويعمّ الظلام مكان النور ، والسواد مكان الإشراق والنصوع !! .

هذه الأجيال تتفق إذا ما اتفقت على الشهوات بمختلف أصنافها وأنواعها وأشكالها ، على النساء والخمور ، والرقص والفجور ، والعهر والسفور ، والربا والقمار والظلم وإظهار النحور...... ! حتى إذا ما ادلهمّ الخطب ، ولوّح الأعداء بسبابة القهر والدمار والاحتلال ؛ باعوا البلاد والعباد والأعراض والدماء ، ونحروا الفضيلة والكرامة والعزّة في ساحة التاريخ ولم يُبالوا.....!! .

وبعد كلّ هذا يأتي واحدٌ « مثلي » هذه الأيام ليقولَ لتلك الأجيال :

يا أيها الناس ، إنّ شريعة الله ودين الإسلام فيه صلاحكم ورشادكم ، وعزّكم وقوتكم ، وعلْمكم ورفعتكم ، وتقدّمكم وتطوركم ، وإنصافكم وغناكم ، وأمنكم وسلامتكم ، وأحلامكم وأمانيكم ، وسعادتكم وجنتكم ، و. . . . . !! .

لقد أطلّتْ أيام شهر رمضان المبارك ـ شهر الخير والمحبة ، شهر الصفاء والطهرـ منذ أيّام ، فاستقبلناها كعادتنا بدموع الفرح وأشواق المحبين ، ونحنُ نعيش في براءة القرى ، ونقاء الصحراء ، ومحبّة العشاق ، فنصوم نهارنا وننام ليلنا كي نتقوى به على واجباتنا وأعمالنا ، ونحمل همّ إخواننا المضطهدين في كلّ مكان ، حيث الشتاء القارس ، والليل الدامس ، والشعب العربي المسلم الناعس ، ووجه التاريخ العابس ، والذلّ والقهر والجوع اللابس ، فلا قائد ولا مُنقذ ولا فارس!! .

تصلُنا نشرات ومطويات تحضّنا على مقاطعة البضائع والصناعات الأميركية والبريطانية والغربية ، وذلك حتى لا نعين دول الكفر والإرهاب والظلم على تمكين شوكتهم ، وتثبيت سيطرتهم على بلادنا وقتل شعبنا واغتصاب أرضنا وسجن علمائنا وشبابنا و. . . . . . !

فالصناعات والمركوبات والمأكولات والمشروبات والملبوسات والمفروشات والموضات والصرعات وغير ذلك ، كلها أميركية وغربية ، فلا بدّ من هجرها وتطليقها بالثلاث دون رجعة ، والاعتماد على المنتوج المحلي وإن كان لا يحمل مواصفات المستورَد .

وصلتنا تلك المنشورات ؛ والمسؤولون والتجار وأبناؤهم يحملون الوكالات الأجنبية في بلادنا العربية الإسلامية ، ويستأثرونها لأنفسهم ، حيث تدرّ عليهم من الأرباح ما يملأ بطونهم وجيوبهم ، ويُقوّي أرصدتهم

وخزائنهم ، فلا نكاد ندخل محلاً كبيراً ، أو حانوتاً صغيراً ، حتى نجدَ مصرفاً لبضائع الإفرنج والكفار ، بما تحمله من مغريات وأضواء وزينة !! .

وتكَلّم المتكلمون ، وخطب الخطباء ، أنّ أهل الغرب في حملاتهم الصليبية واعتداءاتهم الشيطانية على بلاد الإسلام والمسلمين كان شعارهم : (تبرّع بدولار واقتل مسلماً)! والآن المسلمون يدفعون مليارات الدولارات باستهلاك منتجات بلاد الغرب ، ليقتلوهم بها شرّ قتلة ، وليحتلوا بلادهم ، ويغتصبوا نساءهم ، ويُشرّدوا علماءهم ، و . . . . . . وهم راضون مستسلمون!!

اضطرتني الظروف ـ ونحنُ في السابع عشر من شهر رمضان الحبيب الكريم ـ للذهاب إلى المدينة لعملٍ ما ، ثمّ وجدتها فرصة لزيارة أصدقائي والسلام عليهم ، فرُحْتُ أتنقلُ من واحد إلى آخر ونحن فرحون بملاقاة بعضنا بعضاً ، فاستمرأنا السّهر والسّمر حتى الواحدة والنصف ليلاً .

ومثل هذه السهرات الطويلة ؛ غريبةٌ في حياتنا ، مستثناةٌ من أيامنا ، فودّعتُ أصدقائي متجهاً إلى منزلي في القرية ، وفي نهاية المدينة حوّلتُ إلى محطةِ بترول كبيرة كي أُزوّد السيارة بالطاقة حيث المشوار طويل . . . . .

وعجبتُ في تلك الساعة المتأخرة من ذلك الزحام الشديد في المحطة التي تجمع مصرفاً لأحد البنوك ، بالإضافة إلى أحد فروع محلات (ماكدونالدز) الأميركية .

فانتظرتُ خمس دقائق ، ثمّ عشراً . . . . . . ، حتى قاربت الساعة الثانية ليلاً ، وكان الإعياء واضحاً على محياي ، فنزلتُ من سيارتي لأنظر ما المشكلة ، فتخطيتُ السيارات حتى رأيتُ ما أدهشني حقاً ، وجعلني

أمسحُ وجهي وأفركُ عينيّ ، إذْ لعلّي أحلمُ في منامٍ مزعجٍ أو كابوس مخيف !! .

كانت السيارات الفخمة المحمّلة بالأطفال والنساء والكبار والصغار ، تشكل رتلاً طويلاً أمام فرع (الماكدونالدز) الأمريكي ، فسدّ الطريق على محطة البترول ، والجميع يتحيّن فُرْجةً للخروج ، لكن دون جدوى !! .

لعلّه موقفٌ عادي عند بعض الناس ، لكنّه عند العقلاء غير عادي ، ومستحيل أن يكون عادياً ، لأنّ الحربَ قائمةٌ في فلسطين منذ أكثر من خمسين عاماً ، وفي أفغانستان منذ شهور ، وفي الشيشان وفي كلّ مكان ، ونحن هنا نُروّجُ لمأكولاتهم وكلّ ما يصنعون ، حتى في الشهر الفضيل ، وكلّ المنشورات والمطويات وفتوى العلماء والمشرّعين ، كلّ ذلك لا يجدُ صدىً ولا سمعاً ولا طاعة ، فأيُّ صيامٍ نصومه إذاً ؟!! .

ثمّ إني لأعجبُ ممن يستلذّ ويستمتع بأكل المطاعم ، ويزهد ويأنف من طعام يده وبيته . . . . . . !! فالمطاعم ما وُجدت إلاّ للضرورة كحالات السفر وغيره ، أمّا أن تكون هي الأصل والبيت استثناء فهذا ما يُنذر بالخطر ، فكيف إذا كانت من مطاعم أميركية وغربية ؟!! .

والمهمّ أني تركتُ المحطة ـ وقلبي يعتصر ألماً ، وينزف حزناً على هذه الأمّة التي تتيه وتتخبّط حتى في أبسط الأشياء ـ لأَمُرَّ بعد ذلك في طريقي على سوق كبيرٍ للملابس ، فهالني أنّه ما زال يغصّ بالناس ، وخاصّة النساء في الساعة الثانية والنصف ليلاً!

فتابعتُ مسيري وأنا أبكي على هذه الأمّة التي أصبحتْ تسهرُ ليالي شهر رمضان المباركة على الأكل والشرب واللبس وباقي الشهوات. . . . . ! والذي يسهر الليل لا بدّ وأن ينام النهار ، وإذا انقلبت موازين الفطرة والطبيعة السليمة ؛ فلا بدّ من وجود خطر وانحراف ، أو

حدوث ما لا يُحمدُ عقباه ، من مسخٍ وعقابٍ أليم وذلّ وقهر وفقر وتشتت. . . . . !!

عجباً من أمّة لا تتعظ بغيرها . . ! عجباً من أناسٍ لا يقرؤون ، وإذا قـــرؤوا لا يفهمـــون ، وإذا فهمـــوا لا يُطبّقـــون ، وإذا طبقـــوا لا يتقنون. . . . !! .

أسأل الله أن يهدينا وسائر المسلمين لِما فيه صلاح أنفسنا وقلوبنا ، وصلاح أبنائنا وبناتنا ، وألاّ يجعلنا عبيداً لشهواتنا وما تُمليه علينا الشياطين .

* * *

الجفـــاف

اجتمعتُ يوماً من الأيام - وعلى غير عادتي - مع أحد التجار المتخمين ، وأحد الملحنين المترفين ، وكان الجدبُ والقحط قد عمّ البلاد ، وأرهق العباد ، فانتشر الفقر ، وزادت جرائم القتل والسرقة ، ووجدها المحتالون فرصةً ليحتكروا أقوات الشعب وضروريات حياته ، فراحوا يمصّون الدّماء ، بعد أن مزّقوا الجيوب ، ونظّفوا الخزائن!! .

ولا غرابة في أن يطرح مَن يحملُ همّ الشعوب المسكينة ، قضايا الواقع الحزين في كلّ مجلسٍ يجلسه ، حتى ولو مع الذين يدّعونَ - زوراً وبهتاناً - أنّهم من حملة الرسالة في مسؤوليتهم عن العامّة!! .

كان فصلُ الشتاء يُقدّم أيامه الأخيرة مشمسة حارّة ، كما يتخلى « المهاجر » عن أصله وفصله ، فيذوب في مجتمعات التحلل والميوعة! .

مرّتْ شهور الشتاء كلّها بطيئة قاسية ، فلا الضرع درّ ، ولا النبات ظهر واخضرّ ، ولا النبع عاد بعد حرّ ، فظلّ وجه الأرض قاحلاً كالحاً أنشف من وجه ظالم! .

آلاف البراميل من « البترول » تتخذ أماكنها يومياً على ظهور البواخر والسفن ، لتغادر البلاد حزينةً مُكرَهة إلى حيث لا تدري ، مثلما تحمل نفسها البواخر آلاف الأطفال من بلاد القارّة السّوداء ، لتذهب بهم إلى بلاد الغرب فيُباعوا بأبخس الأثمان ، ويُستعملوا في غير ما يُرضي الله والضمير

الحي ، في تلك البلاد التي تدّعي ـ كذباً ونفاقاً وخيانة ـ أنها راعية لحقوق الإنسان والسلام العادل !!! .

وتعود البواخر والسفن ثانية محمّلةً بأنواع الخضراوات والفواكه والثمار ، وأصناف الملابس الغريبة والعجيبة التي ترضي جميع الأذواق ـ كما يقولون ـ من أغنى العوائل ، حتى أقلّ الناس مالاً . . . . !! .

حتى اللحم والشحم والمعلبات والبَيض والمشروبات الغازية والسندويشات و« الكنتاكي » و« الماكدونالدز » والسيارات بأنواعها من يابانية وأمريكية وألمانية و . . . . . . !! .

كلّ هذا وغيره الكثير الكثير ؛ موجودٌ في الأسواق ، ويصل البيوت بأسهل الطرق وأسرعها من غير عناء ، إذْ ما على الواحدُ منهم إلا أن يُخرج محفظته من جيبه لتسليم الثمن .

وطالما أنّ بطاقة البنك موجودة ، وتلك المحفظة ممتلئة بالدراهم والدنانير ؛ فعلى هذه الدنيا كلّها السلام !!

على الوالد والوالدة اللذَيْن هرِمَا وكُتب اسمهما في دار العجزة والمسنين ؛ السلام !! على الإخوة والأخوات الذين يتخبّطون بلا مرشد ولا مربٍّ ولا معين ؛ السلام !! على الأقارب والأرحام والجيران والأصدقاء ؛ السلام !! على الشعوب الإسلامية التي تُذبح ذبح النّعاج ويُعتدى على نسائها وبناتها ويُتاجَرُ بهنّ ؛ السلام !! على المقدّسات الإسلامية المطهرة التي كانت مهبط الوحي ، وتضمّ في ثناياها أجساد الأنبياء والصحابة والأولياء والصالحين ؛ السلام !! على الضمير الحيّ ، والقلب النابض بالغيرة والحبّ والقوّة والشجاعة والعزّة والكرامة ؛ السلام !! .

فطالما أنّ جيبي ممتلئة ، وبطني ممتلئة ، والثلاجة مملوءة بالفواكه

والخضار ولحم الضأن والدجاج والمشروبات الباردة ، وسيارتي فارهة مكيّفة ؛ إذاً مالي ولكلّ الناس من حولي ، مهما كانوا ، وأينما كانوا؟!! .

ما الدّاعي ـ وأنا أغرقُ في هذا النعيم والترف ـ لأنْ أرفع كفّ الضراعة إلى الله سبحانه وتعالى داعياً إيّاه أن يُنزل علينا الغيث والمطر؟

بل إنْ صادف قلبي لحظة خشوعٍ وصفاء ، فإني أدعو الله أن يجعلَ الجوّ مشمساً دائماً ، والغيوم عقيماً ، تغطي وجه السماء فتُكسب الطبيعة ظُلّة نتفيأ جمالها تحت أشجار الحدائق ، وفوق المروج الخضراء ، وعلى شواطىء الأنهار والبحار ! .

والبَرَكة في النهاية لمحطات التحلية التي تُحوّل الماء المالح الأجاج ، إلى ماء حلو عذبٍ فرات ! .

لم يكن ذلك الاجتماع بالتاجر والملحن ليتمخض إلا عن نتائج متوقعة في البال ، لكنّ الواقع يؤكد ، والظنون ـ في أكثر الأحيان ـ لا تخيب في هؤلاء المتخمين الذين يعيش أكثرهم على دماء الناس وأخلاقهم !! .

قلتُ ـ وأنا الذي لا يملك إلاّ قلماً وكتاباً ، بل هما رأس مالي وبضاعتي التي أتاجر بها مع الله ـ : إنّ حرارة الجوّ مرتفعة هذه السنة أكثر من السنوات الماضية ، ولا ندري لماذا تأخّر وصول المطر إلينا ، رغم اشتياقنا إليه ، والحنين للقياه ؟ ورغم دعاء الخطباء على المنابر ، وصلاة الاستسقاء التي عمّمها الحاكم وأوجبها الشهر الماضي في كلّ الدولة ؟! .

فقاطعني « التاجر » الذي أعرفُ أنّه لا يُخرج من زكاة أمواله إلا النزر اليسير ، ولا يُصلي إلا في الأعياد ، ويغشّ في تجارته ويحتكر ، ويظلم

عُمّاله ، فيقصّر في حقوقهم المادية والمعنوية ، ويحضر مجالس الفسّاق !

قاطعني ، ثمّ راح يُمثّل ، فأرخى جفنيه قليلاً ، وبدا الحزن على تقاسيم وجهه قائلاً : حقّاً ما تقول ـ يا أستاذ ـ فإنّ المطر لو هطل من السماء ؛ فإنه سينظف الهواء الذي نستنشقه ، وسيصبح الجوّ ممتعاً أكثر فيما لو خرجنا إلى المتنزهات والحدائق وشواطىء البحار ، ولربما استراح الخدم من غسيل السيارة صباح مساء ، ولاكتفوا بغسيلها مرّة واحدة ،ولربما أقمنا حفلَ ميلاد ابننا الأوسط في تلك الحديقة ذات الأشجار الوارفة ، فإنّ المراح تحتها رائع على أنغام الموسيقا الشرقية !! .

إنّ المطر لو نزل من السماء ، لأصبحت رائحة الطعام زكية أكثر ، وطعمه طيباً ولذيذاً ، حتى أني أذكرُ مرّةً وقد انكشفت السماء من غيمها بعد غيث غزير ؛ تفتّحتْ شهيتي ، فأكلتُ أكثر من كيلو لحم مشويّ ، لولا أن قاطعني ذلك العامل الأحمق ، فقد جاء يطلب أجرة شهرين مضيا ، متعلّلاً بأنّ المدرسة على الأبواب ، ويحتاج أموالاً لشراء مستلزمات الدراسة لأولاده !! .

إنّ الناس ـ يا أستاذ ـ بدؤوا يفقدون مشاعرهم وأحاسيسهم وذوقهم ، وصاروا يلهثون وراء المال ، ويطمعون بنا كرجال أعمال ، وكأننا نملكُ مال « قارون » مع أنّ ثروتي وكلّ ما أملك من بضعة مئات من الملايين ، عندما أُقارنها بفلان وفلان ؛ لا أجدُ نفسي سوى تاجر بسيط !! .

صحيح أنني أملكُ من السيارات بعدد أيام الأسبوع ، وأولادي يملك كلّ واحدٍ منهم سيارة فارهة ، وصحيح أننا نغيرها كلّ عام تقريباً ، غير أنّ هذا لا يدلّ على الغنى مقارنة بغيرنا ، فلئن كنتُ أُغيّرُ كلّ عامٍ سياراتي

وفرش بيتي و. . . . . . ، فإنّ فلاناً يفتح كلّ عامٍ شركة ، ويبني برجاً ، ويربح الملايين !! .

يا أستاذ ، إنّ نزول الغيث من السماء ، ورحمة الله بنا ، متوقفة على خوف الناس من الله وتقواه ، إنّ هؤلاء الناس والعمال والموظفين والكادحين إن لم يُغيّروا ما بأنفسهم ؛ فإنّ الله لن ينظر إليهم ويرحمهم ، بل هم يوردونا موارد الهلاك معهم ، فلا بدّ من تأديبهم والضغط عليهم ؛ حتى يتعظوا ويثوبوا إلى رشدهم !! .

ثمّ تجشّأ التاجرُ بسبب الجهد الذي بذله من ذلك الكلام ، وأتبع الجشاء تثاؤباً عميقاً. . . . . . !

فقاطعه كبير الملحنين قائلاً : لا فُضّ فوكَ يا بن الأصالة والشهامة ، فإنّ الكلام الذي سردته على مسامعنا ؛ أجمل من حبّات المطر وهي تنزل من السماء ، وأنقى من دموع الفقراء والبؤساء التي تخرج من عيونهم ألماً وحزناً وشقاء ، وأصفى من وجوه الكادحين الذين نراهم صباح مساء في معاملنا وشوارعنا !! .

أجلْ ، فكثيراً ما أسمع من شتائمهم ، وألقى من انتقاداتهم ونظراتهم الحادّة ، ما يجعلني أحتقرهم وآنفُ منهم ! .

إنهم يصفون ـ جهلاً منهم وعدم معرفة ـ أنّ ما أقوم به من عملٍ وتأديةٍ لرسالة الفن ؛ يُعتبر حراماً وعيباً ومنقصة أجر ومكانة وقدْر ، وأنّه من السّبل التي تقودني إلى غضب الله ومقته ، وما ذنبي إلا أني أُرافق المطربين والمطربات في حلّهم وترحالهم ، فأُضفي على المقاطع الغنائية لحناً يُسحر العقول ويسكرها ، ويدغدغ النفوس فينسيها همومها ، ويسري في الجوارح لترقص وتمرح وتلهو. . !! .

ألأجلِ هذا ينتقص الناس من قدرنا وما نُقدّمه من جهدٍ في خدمة

الوطن والأمّة ؟! يا لهؤلاء الحمقى ما أغباهم وأسفه أحلامهم !! لو كان ما ينعتوننا به صحيحاً ؛ لَمَا سمح لنا الحكّام بمرافقتهم ومصادقتهم ، ولَمَا أَذِنُوا لنا بالظهور ليل نهار على شاشات التلفزة وفي الإذاعات والصحف والمجلات ، ولَمَا أقاموا لنا القاعات الضخمة في الفنادق الفخمة ، ولا الساحات الوسيعة في المناسبات البديعة !! .

إننا لندين لهذا الوطن بعطايا جسيمة ، لو علِمَ قدرها هؤلاء الرعاع والمساكين والعوام ؛ لجالدونا عليها بالسيوف !!

إنهم ليحسدوننا حسداً عجيباً ، ربّما لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا فِعْلنا ، وينهجوا نهجنا ! أو ربّما لأنهم لا يتصدّرون « الإعلام » مثلنا ! أو ربّما لأنهم لا يملكون ثمن التذاكر التي تسمح لهم بالدخول إلى مراتعنا الخصبة بالمحبة والأخلاق والتآلف ! كلّ هذه الاحتمالات ممكنة !! .

لكنّ الله يرى ويسمع الجميع ، وسوف يحاسب كلّ مخلوق على نيّته ، وما أقسى عقاب الحاسدين وأشنعه ! .

هدى الله هؤلاء الناس الذين لا يُقيمون وزناً للفن وللطرب الأصيل واللحن العذب الجميل !! .

إننا في رضا من الله ، وهذا الرضا ما بلغناه إلاّ بصفاء النوايا وطيب القلوب ، حتى وإن عاشرنا المتبرجات الكاشفات أكثر مما هنّ ساترات ، وإن جالسنا شُرّاب الخمور ومُظهرات النحور ، وإن سهرنا على راحة مدمني القمار ، بتلحين أعذب الأشعار ، كلّ هذا عادي ، ما دام القلب طاهراً راضياً !! .

توقف الكلام ، ثمّ نظرتُ حولي ، ومسحتُ وجهي ، إذْ لعلّي في حلم من الأحلام ، بعد أن تعوذتُ بالله من الشيطان الرجيم وأتباعه. . . . . ! .

شدّني عنوان الجريدة التي كانت أمامنا على الطاولة ، مكتوبٌ على صفحتها الرئيسية ، وبالخط العريض وبالصورة الواضحة :

(لقد داهمت قوات الاحتلال اليهودي بيت المقدس بالدبابات والرشاشات ، وأسقطت العشرات من الشباب الفلسطيني ما بين قتيلٍ وجريح) .

وفي أسفل الصفحة دعوة من أحد الفنادق المشهورة ؛ لإقامة حفلةٍ رومانسية بحضور الفنان فلان ، والملحن الحاضر ، مع صورة للراقصات الشهيرات . . . . !!! .

* * *

أحادث نبوية مشرقة

عن عطاء قال : دخلتُ أنا وعُبيد بن عُمير على عائشة ، فقالت لعبيد بن عُمير : قد آن لكَ أنْ تزورنا ، فقال : أقولُ يا أُمّه كما قال الأول : زُرْ غبّاً تزدد حُبّاً . قال : فقالتْ : دعونا من رطانتكم هذه .

قال ابنُ عُميرٍ : أخبرينا بأعجب شيء رأيتِه من رسول الله ﷺ ، قال : فسكتتْ ثمّ قالت : لمّا كان ليلةٌ من الليالي ؛ قال : يا عائشة ، ذريني أتعبّدُ الليلة لربي . قلتُ : والله إنّي لأُحبّ قربكَ ، وأُحبّ ما سرّكَ . قالت : فقامَ فتطهّرَ ، ثمّ قام يُصلي . قالت : فلم يزل يبكي حتى بلّ حجره ، قالت : ثمّ بكى فلم يزل يبكي حتّى بلّ لحيته ، قالت : ثمّ بكى فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض ، فجاء بلالٌ يُؤْذنُه بالصلاة ، فلمّا رآه يبكي قال : يا رسول الله ؛ لِمَ تبكي وقد غفر الله لكَ ما تقدّمَ وما تأخّر ؟ قال : أفلا أكونُ عبداً شكوراً ؟ لقد نزلتْ عليَّ الليلة آيةٌ ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] [آل عمران : ١٩٠] .

* * *

عن « عبد الله بن أبي أوفى » قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم ، فإذا هو بصبيّ يبكي ، فقالَ : يا « عُمَر » ، ضُمّ الصبي فإنّه ضالّ .

---

(١) صحيح ابن حبان : ج٢ ، ص : ٣٨٦ .

فجاءتْ أُمّهُ فأخذت ابنها ، فجعلتْ تضمّهُ إليها وترشفه وتبكي ، فقالَ النبي ﷺ : أترونَ هذه رحيمةً بولدها ؟

فقالوا : نعم ، فقال : (والله ؛ للهُ أرحمُ بالمسلمينَ من هذه بولدها)[1] .

* * *

خرج « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه (إلى مسجد رسول الله ﷺ ، فإذا هو « بمعاذ بن جبل » يبكي عند قبر رسول الله ﷺ ، فقالَ : ما يُبكيكَ يا معاذ ؟

قال : أبكاني شيء سمعْتُهُ من صاحب هذا القبر ، سمعتهُ يقول :

(إنّ الله يُحبّ الأبرار الأخفياء الأتقياء ، الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا ، وإذا حضروا لم يُعرفوا ولم يُدعوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كلّ غبراء مظلمة)[2] .

* * *

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : (لقد رأيتُ رجُلاً من أمّتي أُمِرَ به إلى النار ، تعلّق به بناته ، وجعلنَ يصرخنَ ويقلْنَ : يا ربّ ، إنّه كان يُحسنُ إلينا في الدنيا ، فرحمه الله بهنّ)[3] .

* * *

عن ابن « شماسة المهري » قال : حضرْنا « عمرو بن العاص » وهو في سياقة الموت ، وولّى وجهه إلى الحائط ، فجعل يبكي طويلاً ، فقال

---

(١) مجمع الزوائد : ج١٠ ، ص : ٢١٦ .
(٢) مسند الشهاب : ج٢ ، ص : ١٤٨ .
(٣) تفسير القرطبي : ج ١٠ ، ص ٤١٦ .

له ابنه : ما يُبكيكَ ؟ أمَا بشّركَ رسول الله ﷺ بكذا؟ أمَا بشّركَ رسول الله ﷺ؟ قال : ثمّ أقبلَ بوجهه فقال : إنّ أفضلَ ما تعدّ عليّ : شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، إني قد رأيتني على أطباق ثلاث ، لقد رأيتني وما أحدٌ من الناس أبغض إليّ من رسول الله ﷺ ، ولا أحبّ إليّ من أن أكونَ قد استمكنتُ منه فقتلته ، فلو متُّ على تلك الحال ؛ لكنتُ من أهل النار . فلمّا جعلَ الله الإسلام في قلبي ؛ أتيتُ رسول الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسول الله ، ابسط يدكَ لأُبايعك ، فبسطَ يمينه ، فقبضتُ يدي ، فقال : ما لَكَ يا عمرو ؟ فقلتُ : أردت أن أشترط ، فقال : تشترطُ ماذا ؟ قلتُ : يُغفرُ لي . قال : أمَا علمتَ يا « عمرو » أنّ الإسلام يهدمُ ما كانَ قبله ، وأنّ الهجرة تهدمُ ما كان قبلها ، وأنّ الحج يهدم ما كان قبله ؟ فبايعتُهُ ، وما كان أحدٌ أجلّ في عيني منه ، إني لم أكن أستطيع أن أملأ عيني منه إجلالاً . . . . ![1] .

* * *

---

(١) مسند أبي عوانة : ج١ ، ص٧ .

الكـــــرَم

هكذا تتوالى الأيام وتمرّ السنون ، تشرق الشمس من المشرق ، وتغرب من المغرب ، وصفحة العرب والمسلمين تخيّم عليها الغيوم الشاحبة السوداء ، تمطرها حجارة وسُمّاً وتخلفاً وخمولاً ، لا ينفع الصراخ والعويل ، ولا التخطيط ولا التنكيل ، لأنّ كلّ ذلك لا يخرج من قلوب مؤمنة صادقة ، ونوايا صافية نقية ، ونفوس تحبّ بعضها بعضاً!! .

فكلّ واحد منهم يقول : أبي الإسلام لا أبَ لي سواه ، فإذا ما ذُكر الإسلام ، وسُمع النداء لتطبيقه قلباً وقالباً ، نظرياً وعملياً ، كلاماً وفعلاً ، اشمأزّتِ القلوب ، وعبست الوجوه وامتعضت ، وعُضّ على الشفاه ، ثمّ تتفتح الأسارير عن ضحكة كذوب ، مليئة بالخبث والمكر والدهاء والمواراة ، فتكون الخطب الرنانة ، والعبارات البليغة ، والكلام الموزون ، والصيحات المطربة ، ثمّ الويلُ والويلُ بعدها لمن يعمل أو يُطبّق أو يدعو. . . . . !! .

الحقيقة أنّ ما يُمليه عليه هواهم وعقلهم القاصر ؛ هو الذي يجب أن يكون ويُطبّق ويروه أمام ناظرهم ومرآهم واقعاً يتحرك فيه الناس ، ويُدخلوه أدمغتهم ، ويقتنعوا به ، ويحضّوا الآخرين على التمسّك به ، حتى لو كان به هلاكهم ودمارهم وذلهم وفقرهم وجهلهم وتخلفهم. . . . !! .

المهم أن تعرف الشعوب أنّ « فرعون » الذي كان يستعبد رعيته ،

فيستحيي نساءهم ويقتل أولادهم ويشرّد رجالهم ـ مَن كان فيه شهامة أو نخوة أو جرأة على قول الحق والعمل به ـ لا زال يعيش في هذه الدنيا ، وإنْ تغيّر ثوبه ولونه وشكله ، فالذئب يبقى ذئباً وإن لبس لبوس القديس ، والأفعى لا تتغير وإن ادّعت أنها حمامة السلام ، وقرين الوئام !! .

نرى تتابع الأيام وانقضاءها ، فلا نسمع في الخُطب والمقالات ، ولا نقرأ في الصحف والمجلات ، والكتب والإذاعات ، سوى كلمات الرفض والتأخر والتراجع والسقوط والانحراف ، والتحسّر والندم ، والانهزام والتبعية ، وكل ما في القاموس من كلمات تبعث على اليأس والقنوط ، والحزن والألم ، من واقع صنعناه بأيدينا أو من أبناء جلدتنا ولغتنا ودَمِنا! .

حتى مكارم الأخلاق والقيم والمبادىء السامية بدأت تتلاشى وتنمحي ، أو ربّما تهرب إلى السماء فتستقر في المجرّات والكواكب ، فتأبى النزول حتى يغيّر الناس ما بأنفسهم !! .

لقد ضاعت الفضيلة في المدن ، وفرّت هاربة إلى القرى والبوادي لتبحث لها عن قلوب طاهرةٍ تحتضنها وترعاها وتحنو عليها ، فتمسح دمعتها ، وتسقيها ماء الإباء والرجولة والشهامة ، لعلّ ورودها الشذية تتفتح من جديد ، وبسمتها الضائعة تعود إليها !! .

كان يُقال بأن العرب يُحبون بعضهم بعضاً ، فكلّ قبيلة تجتمع وتتحد عندما يظهر ما يهدد أمنها واستقرارها وعيشها ، أو سُمْعتها ومكانتها بين القبائل .

أمّا اليوم ، فلا تسمع إلا السّأم والملل والتذمّر من الجنسية العربية ، وأنّ ذلك مبعث عار عند بعض الناس ، فلو قُدّر له أن ينسلخ من جلده ويبدله بجلدٍ غربي ، لَمَا توانى لحظة واحدة !! بالرغم من أن القرآن

الكريم نزل على العرب وبلغتهم ، فرفعهم من الحضيض إلى مكان الصدارة ، ومن الدركات إلى الدرجات .

وكان يُقال بأن العرب لا يقبلون الذّلّ والخنوع والاستسلام ، ولا أن يحْنوا رقابهم للأعداء ويقبلوا محبتهم أبداً ، فهاهم أذلّ أمّة على وجه الأرض وفي صفحة التاريخ ، لقد حنّوا إلى جاهليتهم فعادوا إليها يتقاتلون ويتناحرون ويهمز بعضهم بعضاً ، ويتفاخرون بالشاة والبعير والدرهم والدينار ، ويستمتعون بسياط الأعداء ولكماتهم ، فإذا ما توقفوا عن الضرب ؛ اشتاقوا ثانيةً ، وراحوا يتغزلون بقسوة الأعداء وشتائمهم ، وينشدون في ذلك الأشعار . . . . . ! ثمّ يتسمّونَ بأسمائهم ويفتخرون ، ويركبون مصنوعاتهم ويلبسونها ويأكلونها وهم راضون قابلون ، بل كلّ ما هو عربي ووطني ؛ يعني تقليدياً مغشوشاً غير صالح ولا قابل للاستعمال ، وهم مبعث العيب والسخرية ، ودليل فقر ودروشة . . . . !! .

وكان يُقال بأنّ العرب يغيثون الملهوف ، ويساعد بعضهم بعضاً في الرخاء وفي الشدّة ، حتى دارَ الزمن دورته ، وجاء مَن يقول :

« هل نحن متكفلون بأرزاق الغير حتى نُخرج زكاة ملايينا ومليارتنا »! فلو طلبتَ من أحدهم درهماً لإيواء منكوب ، أو كسوة يتيم ، أو تعليم جاهل ، أو سدّ رمق فقير بائس ، أو . . . . . . لامتعضَ وجهه وعبس ، رغم تملكه مال الله الكثير ! وإنه لو طلبتْ منه مومسٌ فاجرة مئات الدراهم ، لأعطى بسخاء ، وقدّم لها كلّ ما تبغيه ولو روحه العفنة وقلبه الخاوي المريض !! .

عجباً لكَ أيها الإنسان إذا شبعتَ ، وهجرت القرآن ، وأعرضت عن تعاليم الإله القادر البصير ، كيف تصبح؟ وإلى أيّ مخلوق تستحيل ؟!! .

وكان يُقال بأن العرب كرماء في جاهليتهم ، وبعد إسلامهم وإيمانهم .

لكنّا في ظلّ قرون التطور والتمدّن ، لم نشاهد شيئاً من ذلك ، فأعداد الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل أكثر من أن تُحصى ، فأصبح أحدهم يفضل أن يرمي الطعام في حاوية القمامة تكبّراً وفخراً وعنجهيةً وجهلاً ، من أن يتصدّق به على فقير يطوي ليله ونهاره لا يجد رغيفاً يكسر به جوعته ، وإن كان وفعل ذات يوم أنْ وزّع طعاماً أو أنفق نقوداً أو. . . . . فلا يفعل إلاّ أن يُذاع في الإذاعات ، ويُكتب في الصحف ، ويُخطب على المنابر أنّ فلاناً قد أطعم كذا وتصدّق بكذا. . وإلاّ فلا يُعاود فعله ، ولا يكرر رفده !! .

نعم ، كلّ هذا موجود وبكثرة مخيفة ، ونسبة كبيرة. . . . !!

لكنّا مع ما قلناه ووصفناه ، قد يظنّ بعض الناس أننا نبالغ أو ننتقص أو نحتقر ، ويظنّ آخرون أننا ما أعطينا الأغنياء حقّهم وصفاً وفضحاً وإبرازاً لجرمهم وبخلهم على مَن يستحقون ، وريائهم ومنّهم القاتل البذيء!! .

رغم كلّ ما ذكرناه ؛ فكلنا أملٌ وتفاؤل بوجود الطائفة الخيّرة الكريمة الجوادة الشجاعة التي تحمل الإسلام قلباً وقالباً ، قولاً وعملاً ، سيرة وأخلاقاً ، هذه الطائفة التقية النقية ، الطاهرة المطهرة ، باقية خالدة ما دامت السموات والأرض ، وما دام هناك عرقٌ ينبض ، ونَفَسٌ يجري !! .

ثمّ إنّ هذه الطائفة تنفرد بها أمّة المصطفى سيدنا محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه ، فلا تكون إلا فيها ، ولا تخرج إلا منها ، أينما كانت في أيِّ بقعة من بقاع الكرة الأرضية ، في الغرب والشرق ، في الشمال والجنوب ، من البيض والسود ، من الأغنياء والفقراء ، من

الأقوياء والضعفاء ، من العرب والعجم ، من الذكور والإناث . . . . . ، إنهم مصابيح هذه الدنيا التي تُظلِمُ بالمعاصي والبعد عن الله الخالق ، وإنهم ماء الحياة الذي لولاه لغارت المياه ، ولطفئت الشموس ، ولطُمست الكواكب . . . . ! ! .

فطوبى لمن يصطفيه الله في هذه العصور ليكون منهم ، طوبى له وحسن مآب .

ولا زلتُ أذكر يوم كنتُ في إحدى أقطار الخليج العربي ، أُعلّمُ أولاد البادية ، ففررتُ من عيش المدينة هارباً إلى عمق الصحراء ، فاخترتُ واحةً خضراء ، حيث الهواء النقي ، والعيش الهادىء الهنيء ، أرى الفلاحين والمزارعين والفقراء ، الذين يمشون على أرجلهم ، ويأكلون من عمل أيديهم وعرق جبينهم ، فأختلي بنفسي بعيداً عن المدينة وفتنتها التي تشوّشُ على العقل تفكيره ، وعلى القلب نقاءه وبياضه . . . . . .

وما كان يعرف مسكني إلا مَن له علاقة طيبة تربطني به ، ودخل شهر رمضان الكريم في إحدى السنوات ، فكنتُ أجدُ في خلوتي وعبادتي ؛ أكثر مما يجده الغنيّ في ماله ، وذو الجاه في سلطانه وصولجانه ! ! .

وذات يومٍ كنتُ أُعدّ طعام الفطور قبل أذان المغرب ، فرنّ جهاز الهاتف ، وإذا بأحد طلابي من أهل البوادي يسألني عن موقعي في السكن ، فسررتُ أنّا سنفطر سوية ، فيكون لي من الأجر مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء ، ولمّا انتظرته ـ وكان بصحبة أخيه ـ سلّمنا على بعضنا سلاماً حارّاً ، ثمّ أنزلا من السيارة وعاءين مملوءين طعاماً ، واستأذنا بالرجوع لموعدٍ عند أحد أقربائهما .

فرِحتُ بمجيئهما ، وانقبض قلبي لاعتذارهما أن نفطر جماعة ، وقبل أن يتحركا للذهاب ؛ سألتهما : ما الذي جعلكما تأتيان هذه المسافة

الشاسعة ، وتتكرمان على عبدٍ ضعيف يسكن هذه الواحة النائية ، يُصادق العصافير والحمائم ، ويطرب لأصوات الحيوانات والحشرات في الليالي المظلمة ، ويناجي الله في الليالي المقمرة ويتضرّع إليه . . . . ؟ ! ! .

فأجابا بكلّ إخلاص وبراءة : هذا واجبٌ علينا يا أستاذ ، ونحن نعتذر على التقصير ، ثمّ إنّ الوالد والوالدة لهما الفضل في أن يذكراك أيضاً ، وهذا الطعام من عمل الأهل في البيت ، ليس من الأسواق ، ولا من المحلات الأميركية ، ولا المطابخ الشعبية . . . . . .

شكرتُ لهما صنيعهما ، وعادا أدراجهما وأنا أدعو لهما ولأهلهما ولكلّ مَن بقي عنده ذرّة من الأخلاق المحمدية ؛ بالخير والتوفيق والقبول والرضا . . . .

وكعادتي ، ترقرقت الدموع في محجري ، وسألتُ الله تعالى أن يحفظ أمّة سيدنا محمد ﷺ ويرعاها ، إنه أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين .

* * *

مركـــز تجــــاري

قالوا : إنّ بالمدينة مركزاً تجارياً ضخماً جديداً ؛ فيه ما تشتهيه الأنفس ، وتلذّ الأعين ، وتنبهر به القلوب !! .

فقلتُ لهم : إني لستُ من أولئك الذين تستهويهم المدن بأضوائها وزينتها ، وصخبها وضجيجها ، وأبراجها وأسواقها ، ومجونها وانحرافها ، إذْ في قريتي ما يغنيني عن كلّ ما يصدّع الرأس ، ويُمرض القلب ، ويُمزّق الحياء ، ويقضي على الضمير ، ويُذهب الإيمان ، ويُشوّه الفطرة ، ويرمي بالإنسان في مستنقع الحياة الآسن - إلا من رحم ربي - !! .

قالوا : إنّكَ تحب الماضي ، وتكره كلّ جديد متطور ، فلا نراك إلا من أولئك الثلة الذين لا يزالون يتمسكون بما يُسمّونه (الأصول) من عادات وتقاليد موروثة عن الآباء والأجداد ، والتي ما عادت تُساير معطيات العصر ، ومجريات الزمن ، وتطورات الحياة !! .

فقلتُ لهم : لولا أني أؤمن بالله تعالى ربّاً ، وبمحمد بن عبد الله ﷺ نبياً ورسولاً ، وبالإسلام ديناً ومنهجاً ، وبالقرآن الكريم كتاباً ودستوراً وإماماً ؛ لاتبعتكم وما تقولون ، ولسرتُ خلفكم أُصفقُ مع المصفقين ، وأرقصُ مع الراقصين ، وأُصدقُ الكاذبين ، وأكذبُ الصادقين ، وأمشي مع التيار حيثما توجّه ، وألتوي مع السيل كيفما التوى !! .

قالوا : وهل « الإسلام » : الذي ندينُ به جميعاً يرفض التطور والتجديد ، والتقدّم والتغيير؟! .

فقلتُ لهم : يخطىء كلّ مَن يعتقد ما تقولون ، وجاهلٌ « بالإسلام » كلّ مَن يظنّ أنّ « الإسلام » يُنكر التطور والازدهار ، وغبيّ كلّ مَن يسمع كلام الأعداء وضعاف القلوب ، مِن أنّ « الإسلام » ولّى عصره ، وذهبَ زمانه! .

ولا تثريبَ عليكم فيما سألتم ، إذْ ما أنتم إلا ضحايا سياساتٍ أهملت « الإسلام » في إعلامها وتعليمها وقوانينها ، ونحّتْه عن حياة الشعوب ، وحصرته في المساجد والأعياد ، ولا تزال حتى اللحظة تُشغل الناس بزينة الدنيا وزخرفها ، فتعرض عليهم الشهوات ، وتُزيّن لهم المنكرات صباح مساء ، حتى حلّتْ في وعاء القلب فأفسدته ، وفي العقول فسطّحتها وخرّبتها!! .

ثمّ إنّ بناء الأسواق الضخمة ، والأبراج العالية ، والجسور الطويلة ، والمصانع الفخمة ، كلّ هذا وغيره لا يدلّ على الحضارة والتقدّم ، والازدهار والتطور ، ما لم يُبنَ على أُطُر شرعية ، ووفقَ القوانين الأخلاقية ، والتعاليم الربانية الإسلامية ، وإلا فمآله الدّمار والهلاك .

ألمْ تسمعوا - يا إخواني - عن الأمم السابقة في العهود الغابرة ، حيث يحدّثنا القرآن الكريم عن أُمم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، فكانت من أروع ما أبدعته اليد البشرية آنذاك ، وكانوا في سعة من العيش ورغد ، لكنهم أنكروا الله تعالى ورحمته بهم ، وأشركوا به ، وكذّبوا الأنبياء ، وعصوا الرسل ، ونسبوا ما هم فيه من النعيم والخير الوفير لأنفسهم وما كسبتْ أيديهم ، وما تفتّقتْ عنه قرائحهم وعقولهم !! فما الذي حدث لهم ؟

لقد أنزلَ الله تعالى عليهم عقاباً أليماً جزاءً وِفاقاً ، عقاباً لم يقمْ لهم من بعده قائمة ، بل ذهبوا إلى قبورٍ ضيقةٍ ، ونارٍ محرقة ، فلم تنفعهم قصورهم ولا دورهم ولا مالهم ولا تفكيرهم القاصر ، بل كانت وبالاً عليهم ، وتلك سُنّة الله في خلقه وعباده يا إخواني !! .

أتُريدون أن أذهبَ معكم إلى ذلك المركز التجاري الذي فُتح منذ أيامٍ في المدينة ؟

حسناً ، فإنّ لي بالمدينةِ حاجةً ضرورية أُريدُ شراءها ، ثمّ نمرّ مرور الكرام بعدها على ذلك المركز الذي يُزمّرون له في الإذاعات ، ويُطبلون في القنوات ، رغم أني لا أتصوره أفضل من المراكز السابقة المنتشرة في أنحاء البلاد ! .

قالوا : انظر إلى هذا البناء الذي يُطاول ناطحات السحاب ، ويمتدّ مدّ البصر ، وانظر إلى هندسته البديعة ، وشكله الجميل ، ولونه الرائع ، وانظر إلى مواقف السيارات التي تحيطه من كلّ جانب ، وإلى العمّال الذين يقومون بالنظافة والتنظيم ، وانظر إلى الأضواء التي تسلب العيون. . . . . !! .

قلتُ : ما كانَ ينبغي أن تخدعكم هذه المظاهر والهياكل ، إذْ ما أنكرتُ ـ يوم كلّمتكم ـ جمالَ ما نرى ونشاهد في هذه العصور من جمادات وإنسان ، فالتزيّنُ والتجمّل شيء فطريّ وغريزي ، فكيفَ إذا كان لمصّ الجيوب ، وخراب وتدمير الأخلاق والبيوت ؟! .

الجمال والنظافة من مأمورات الشريعة الإسلامية وواجباتها ، بل لا تجدونَ أيَّ ملّةٍ من الملل ، ولا طائفة من الطوائف ، ولا أهل مذهب من المذاهب يتجملون ويتحلّون وينظفون ؛ كما يفعله أهل الدين الإسلامي وأتباعه ، إنْ في منازلهم ومحالّهم ، وإن في ملابسهم

وأجسامهم ، ولعلّ هذا لا يحتاج مني إلى برهان ودليل ، فالواقع أكبر برهان ، وأجلى حجة .

إنكَ لترى من بعيد اليهودي أو اليهودية ، والنصراني أو النصرانية ، والشيوعي أو الشيوعية ، أو أفراد أيّ طائفة غير المسلمين ؛ في أناقة وبهاء ، وجمال وحُلّة وصفاء ، فإذا ما اقتربتَ من أحدهم ؛ أذهلتكَ روائح النتن ، وإن كانت ممزوجةً بروائح العطور أحياناً ! ! .

أمّا نحنُ المسلمون ؛ ففي عقيدتنا أنّ النظافة والطهارة ، والأناقة والترتيب ، بالإضافة إلى أنها أمور فطرية ؛ هي قربةٌ نتقرّبُ بها إلى الله تعالى لنزداد أجراً ومثوبة ورضا .

أَلَمْ تروا إلى المسلمين وهم يتوضؤون كلّ يوم خمس مرات ، وينظفون أسنانهم ، ويُقلّمون أظفارهم ، ويحلقون أشعارهم ، ويغتسلون من جناباتهم ، وينظفون أفنيتهم وبيوتهم ومطابخهم و . . . . . . ، وفي كلّ ذلك يعملون وهم يوقنون أنّ ما من حركة إلاّ ولهم بها أجر وحسنة .

إذاً ليس غريباً ـ ونحن نقفُ أمام هذا المبنى الكبير ـ أن تنبهروا بجماله وجمال تخطيطه وهندسته ، وإن كان الأَوْلى بكم أن تنبهروا لجمال وإتقان صنعتكم وخلقتكم ، فتزدادوا حبّاً وقرباً من الإله العظيم ، الذي خلقكم في أحسن تقويم وأجمل صورة ، ثمّ ترفعوا رؤوسكم قليلاً إلى الأعلى لتروا بدائع الله سبحانه في هذا الكون الفسيح . . . . . . فالشمسُ التي ترسلُ أشعتها الذهبية كلّ يومٍ إلى الأرض بحنان وعطف ، فتتفتح الأزهار عن أكمامها ، وتلعب الأطيارُ والأطفال في أضوائها . . . . . ! !

والقمر والنجوم ، والبحار والأنهار ، والجبال والسهول ، والغابات والصحارى ، كلّ هذا وغيره من أنظمة ومخلوقات رائعة ، تجعلُ الإنسان

يخرّ راكعاً لله أمام هذه العظَمة في الصنعة والقدرة ، والجمال والاتزان ، والروعة والبيان ، أكثر بكثير من قصرٍ ، أو مركزٍ تجاريّ كهذا !! .

لكن ، ما أقصرَ نظر الإنسان ، وما أضعف عقله إذا ما ابتعد عن كتاب الله ، والتفكّر فيه ، والعمل بأوامره ، واجتناب نواهيه !! .

ثمّ هلمّوا بنا ـ يا أصدقائي ـ لنذهب داخل المبنى الذي سلَبَ عقولكم وعقول الكثيرين والكثيرات من شدّة العرض في دعايات الإذاعة والتلفاز ، لكن لا أريدكم هذه المرّة أن تقولوا لي : انظر إلى جمال المحلات وتنظيمها ، ورخامها وألوانها وصبغها ، وفرشها وأضوائها و . . . . فقد بيّنتُ لكم أنّ النظام والجمال والبهاء والترتيب ؛ ليس هو الذي يمنعني ويمنع العقلاء من دخول هذه الأماكن وأمثالها ، فتلك صفاتٌ لا نختلف على وجوبها وبقائها في كلّ مكان .

قالوا : ليتك تزيدنا وضوحاً أكثر في هذه المسألة أيضاً ، فقد أوقعتنا في حيرة من أمرنا ، في الوقت الذي بدأت عقولنا تتفتح وتصحو على أشياء كانت عنها غائبة ومعتمة .

قلتُ لهم : إننا أمام أركان ثلاثة : البناء والإنسان والسلعة ، وكلاً من البناء والإنسان موجودان من أجل السلعة ، فالسلعة إذاً هي أهم هذه الأركان .

وتعالوا معي ـ يا إخواني ـ لنضع كلّ ركن من هذه الأركان في ميزان الشرع الإسلامي والخلقي والصحي والعقلي والمنطقي والذوقي و . . . . . . ، ثمّ نصل بعدها إلى النتيجة التي لن تلوموني بعدها إن قلتُ لكم : إنّ هذه المراكز وأمثالها لا تستهويني أبداً ، ولا أجدُ رغبةً في المجيء إليها ودخولها .

ولْنبدأ « بالبناء » أولاً ، فهو أنيقٌ وجميل ومهندَس وفق قواعد

الهندسة الحديثة التي توفّر « للزبون » « كلّ مستلزماته وخدماته بسهولة ويسر ، دون أن يشعر بالعناء والإرهاق ، والملفت للنظر أنهم راعوا مشاعر أهل البلد وعقيدته الإسلامية ، فخصصوا ـ وأظنهم على استحياء ـ مكاناً للوضوء والصلاة ، وهذه ظاهرة جيدة ، وبادرة لا بأس بها في البلاد العربية والإسلامية ، ثمّ وضعوا السلالم الكهربائية واللافتات الإرشادية ، وهذا كلّه من الأعمال الجيدة والشرعية التي لا غبار عليها ولا تثريب .

وننتقل للركن الثاني وهو « الإنسان » وأعني بالإنسان : البائع والمشتري .

فانظروا معي إلى هؤلاء البائعين والبائعات ، فبغضِّ النظر عن عقائدهم ودياناتهم ، إذْ أغلبهم من أهالي الملل المنحرفة والضالّة ، لكنهم في بلدٍ قانونه إسلامي ، وديانته إسلامية ، وأهله مسلمون ، فهل هم من المتأثرين أمْ من المؤثرينَ بنا؟

اسمعوا إلى كلامهم ، فإنهم يتعلمون « الإنجليزية » ويتحدثون بها معي ومعك ومع كلّ « زبون » ولو بقوا مئات السنين ؛ لَمَا تعلّموا العربية أبداً ! !

« فالزبون » الذي لا يعرف شيئاً من « الإنجليزية الإفرنجية » فإنه لن يستطيع أن يشتري شيئاً أو يُفاصل أو يفهم ما يقولونه ، مما يضطرّه للذهاب إلى المعاهد وتضييع الأوقات الكثيرة لكي يتعلّم بعض الكلمات التي يستطيع أن يُسلّك نفسه بها في غمرة الشّره الاستهلاكي العجيب ! !

أمّـا اللغـة « العـربيـة » فلتبـق فـي طيـات الكتـب ، وعلـى رفـوف المكتبات ، لأنها ـ في نظرهم ـ لا تُسمن ولا تغْني من جوع ! ! .

وأعرفُ هندياً في شركة كبيرة هنا ؛ له في البلد أكثر من سبعة عشر

عاماً ، لا يعرف من العربية سوى كلماتٍ لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة!! .

ثمّ انظروا إلى أشكالهم وهياكلهم وما يلبسون ، أمّا « الإناث » فلا أستطيعُ أن أصفهنّ وما يلبسن ، فالتي تُظهر شعرها وصدرها وما فوق ركبتها و. . . . . . . هذه لا أسمّيها إلا « شيطانة » بشكل بشر ، وما هي إلا ضحية لربّ العمل الذي يتخذ منها ومن سفورها وتبرّجها مفتاحاً لقلوب الزبائن ، وذلك من أجل تفعيل الحركة الاقتصادية في البلد ، وما خفي أعظم!! .

وأمّا « الذكور » المُرْد ، فمناظرهم لا توحي بأنهم من أهل العروبة والإسلام ، فلباسهم « إفرنجي » وكلامهم « إفرنجي » وقصّة شعرهم « إفرنجية » ، وهؤلاء أيضاً ضحايا ومساكين ، فهم يقضون عمرهم كلّ يوم من الصباح الباكر حتى فحمة الليل الأخير ، فلا صلاة ولا قراءة ولا ثقافة ولا زيارة ولا ولا . . . . ، لأنّ هذه الفضائل من الممنوعات حسب اللائحة القانونية التي أصدرها ربّ العمل المحترم !! وهنا لا أُعمم ، فالتعميم ليس من مذهبي .

أمّا الركن الثالث وهو « السلعة » ، وهي الأهمّ طبعاً ، إذْ ما أُقيمت المراكز والمحلات إلا لإيصال السلعة المناسبة الضرورية للمشتري .

و الكلام عنها يُدمي القلب ويُدمع العين ، فعندما يطرحون مسألة « العولمة » وأنظر إلى هذه المحلات والمراكز بأركانها الثلاثة ، أجدها من أركان العولمة ، والساعد الأيمن للهيمنة الغربية ، خاصّة على البلاد العربية والإسلامية ، باقتصادها وتعليمها وكلّ مناحي الحياة فيها .

وإذا أردتم البرهان على كلامي ؛ فانظروا إلى ما تحويه المحلات التجارية من ملابس وحاجيات هي في الحقيقة فاضحة ومخزية ،

وأتحدّاكم إن كنتم تستطيعون شراء قطعة واحدة لأزواجكم أو بناتكم أو أمّهاتكم . . . . !! .

وإذا أُصيبَ الناس في أخلاقهم فـأقـم عليهـم مـأتمـاً وعـويـلا

وختاماً ، فلا أريدُ أن أُطيل عليكم أكثر ، فما قلته فيه الكفاية لمن كان له قلبٌ سليم . . . .

إنّ وضْعنا ـ يا إخوتي ـ لتدمع له العيون ألماً وحسرةً على ما نراه من هجوم سافرٍ على قيمنا وأخلاقنا ومعتقداتنا وعاداتنا وتقاليدنا ! !

يا إخوتي ، إنّ بلادنا تنتظر منّا الشباب الذين يناهضون ويدافعون عن الحق ومبادىء الإسلام ، فاسألوا الله تعالى معي أن يجعلنا منهم ، ومن ذريّاتنا ، . . . . آمين .

* * *

مختارات شعرية(١)

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ فلا يُغرّ بطيبِ العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دولٌ مَن سرّهُ زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدّارُ لا تُبقي على أحدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
أينَ الملوكُ ذوي التيجان من يَمَنٍ وأينَ منهمُ أكاليلٌ وتيجانُ ؟
وأينَ ما شادهُ شدّادُ في إرمٍ وأينَ ما ساسه في الفرسِ ساسانُ؟
أتى على الكلّ أمْرٌ لا مردّ لهُ حتى قضوا فكأنّ القومَ ما كانوا
فجائعُ الدّهر أنواعٌ منوّعةٌ وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ
وللحوادثِ سلوانٌ يُسهلها وما لِمَا حلّ بالإسلامِ سلوانُ
تبكي الحنيفيةُ البيضاء من أسفٍ كما بكى لفراق الإلف هيمانُ
على ديارٍ من الإسلامِ خاليةً قد أقفرت ولها بالكفرِ عُمرانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابر تبكي وهي عيدانُ
يا أيها الملكُ البيضاء رايته أدركْ بسيفكَ أهلَ الكفرِ لا كانوا
كمْ يستغيثُ بنا المستضعفونَ وهم قتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسانُ
ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكمُ وأنتم يا عبادَ الله إخوانُ
ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هممٌ أمَا على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

---

(١) من قصيدة جميلة «لأبي البقاء الرندي»، وهو شاعر أندلسي .

يـا مَـن لـذلّـة قـومٍ بعدَ عـزّتهـم أحـالَ حـالهـم جـوْرٌ وطغيـانُ
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليومَ هم في بلاد الكفر عُبدانُ
يـا رُبّ أمٍّ وطفـلٍ حيْـلَ بينهمـا كمـا تُفـرّقُ أرواحٌ وأبـدانُ
وطفلةٍ مثلَ حُسنِ الشمسِ إذْ طلعتْ كـأنّمـا هـي يـاقـوتٌ ومـرجـانُ
يقودها العِلْجُ[1] للمكروه مكرهةً والعيـنُ بـاكيـةٌ والقـلـب حيـرانُ
لمثلِ هذا يبكي القلبُ من كمَدٍ إنْ كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

* * *

(١) العلج: الرجل من الكفار.

دكتــــور........ ولكــــنْ

حدّثني صديقي الذي أثقُ به عن حادثة مروّعة ، لا يكاد يُصدّقها « مسلم » لكنه واقعٌ نعيشه في هذا القرن ، فيقول :

استيقظتُ على رنين الساعة لصلاة الفجر ، بعد عناء ليلةٍ أنهيتُ فيها طباعة أحد البحوث التمهيدية على الكمبيوتر ، التي ستؤهلني لاختيار رسالة « الماجستير » .

فنهضتُ فرِحاً مغتبطاً ، أتشهّدُ من أعماق قلبي ،وأحمد الله تعالى على توفيقه وفضله وامتنانه عليّ . . . . . .

وبعدَ أن أشرقت الشمسُ ، وراحتْ تمدّ خيوطها الذهبية من خلال النوافذ ؛ خرجتُ من البيت متجهاً إلى « المدرسة » النائية بسيارتي ، أقطعُ المسافة مستمعاً إلى الأخبار الجديدة التي تُطالعنا بها الإذاعات صباح كلّ يوم .

ويالها من أخبار مزعجة مقزّزة ، ترسلُ إلى أعماق النفس أسىً وقنوطاً يوَلّدان كراهية ونفوراً من الواقع والمجتمع ! .

أخبارٌ صرنا ـ نحن المستمعين ـ نعرفها ونحفظ خطواتها ، مثل المذيعات صاحبات الصوت الرقيق ، والنبرة النسائية اللطيفة ، حتى أصبحتْ روتينية ، جامدة ، باهتة ، . . . . . . رغم حرارتها ونزيفها ، وسيلان الدماء والكرامة والأرض والعِرض منها . . . . ! ! .

كلّ ذلك في ظلّ سكوتٍ مطبقٍ من أولياء أمور المسلمين في كلّ بقاع الدنيا على الجرائم الفظيعة ، والدواهي المنكَرة التي يرتكبها اليهود ضدّ إخوانـنا في بـلاد الأقصـى المبـارك ، وبـاقـي البـلاد الإسـلاميـة المنكوبة . . . . !! .

جمودٌ وقسوةٌ ، أكثر من الصخور الصمّ ، والحديد الصلب!! جمودٌ يُصاحبه جبنٌ وخنوع واستسلام ، ينمّ عن ضعفٍ علمي ، وخواء روحي ، وجهل تاريخي ، وقلوب فارغة غارقة في شهوات البطن والفرج ، وحبّ للحياة الدنيا حتى الهيام ، وكراهية للقاء الله والآخرة حتى عدم اليقين بهما!! .

ورغم انسياب رياح الصبا ، وملامسة نسائم الصباح الرقراقة أجزاء وجهي ، وخلايا جسدي ؛ إلا أنّ هموم المسلمين والمحن التي تسحقهم وتغتالهم الواحد تلو الآخر ؛ جعلتنا نتسامى عن خضرة الدنيا الفاتنة ، وزهرتها الجذّابة ، ومنظرها الخلاب ، لنعيش مع الشهداء الذين ينتقلون إلى جنّة الآخرة ، دفاعاً عن الإسلام والأرض والأهلين!! .

انتهى الدوام المدرسي ، وانطلقتُ إلى الجامعة لألتقي الدكتور المشرف على البحث . فذهبتُ أرتاض في جنباتها مستذكراً أيّام كنتُ طالباً في مقتبل العمر ، لا أعرفُ ما أعرفه الآن عن المجتمع ، إنما كان حالي كالزهرة قبلَ أن تخرج من كمّها ، لتتفتح على محيط ملوّثٍ ، تملؤه المستنقعات ، وتخنقه عوادم السيارات ، وتحرقه يدُ الإنسان بكلّ ما اكتسبت! .

وفجأة لمحتُ (الدكتور) من بعيد ، فرملتُ إليه مغتبطاً مسروراً ، وبيدي البحث ، فسلّمتُ عليه ، وقد أكل الشيب ما تبقّى من شعرات في جوانب رأسه ، ومددتُ يدي لأصافحه ، فظلّتْ يدي ممتدة أمامه برهة ،

لولا أنه رفع كفّه ليصافحني على استحياء ، فما أن لامستْ أطرافُ أصابعه كفّي ؛ حتى أنزلَ يده خشية أن يراه أحد من العالمين ، أو ربّما يتقزّزُ من أن تمسّ كفّه كفّ طالبٍ لمّا يُعلّق على صدره حرف « الدال » بعد ! .

ناولتُه « البحث » ، فأخرجَ « نظّارته » الثانية من جيبه ، وراح ينظفها ويمسح عدساتها ، ثمّ نظر في الصفحة الخارجية ، وقال : حسنٌ هل أتقنتَ كتابة البحث؟

فقلتُ له : أحمدُ الله « يا دكتور » أني لا أعمل عملاً ـ منذ أن وعيتُ على الدنيا ـ إلا وأبذل قصارى جهدي فيه ، وآملُ أن يعجبك ما كتبتُ ، فأنا أريد أن أنتهي من هذه المرحلة « التمهيدية » حتى أنتقل إلى رسالة « الماجستير » ، فالظروف الآن مواتية ، فأخشى أن تدور عليّ الدوائر ، فأتباطأ وتبرد همّتي في الدراسات العليا ، كما هو شأن أصدقائي والكثير ممن أعرفهم وأسمع عنهم .

فضحكَ ضحكة صفراء ، تبعثُ في النفس الفتور والضعف والأسى ، ثمّ بدأ يتصفح ورقات البحث ، وبقيتُ جامداً لا أتحرّكُ ، أُثبتُ نظري بالأرض ، وأدعو الله من قلبي أن ييسّرَ أمري ، ويجعلني أهلاً لحمل رسالة العلم .

رفع « الدكتور » نظارته ، ووضع أخرى ، فنظرتُ إليه ، ثمّ قال :

البحث غير كامل ، ويحتاج إلى زيادة وحذف بعض العبارات والمباحث .

فشكرته بلساني ، وقد جفّ حلقي ، وأظهرتُ له أننا نحن الطلاب على استعداد لتنفيذ أوامر العلماء أمثاله ، وأنّ ما يقولونه ؛ في صالح الطالب دائماً ، وفي صالح المستقبل الأسود الذي ينتظر الأمّة جميعاً! .

أخذتُ البحث ، ووعدتُ الدكتور المشرف أن أُتمم ملاحظاته بأسرع وقت بإذن الله تعالى ، ثمّ خرجتُ من عنده وقلبي يعتصرُ ألماً ، فما أن لمحتُ أقرب مقعد في الحديقة حتى جلستُ عليه ، ورحتُ أُقلّبُ ورقات « البحث » لأرى ملاحظات « الدكتور » ، فهابني ما رأيتُ حقّاً ، فقد شطب كلّ العبارات والفقرات التي تأمر بإحقاق الحق ، وشيوع العدل ، وتحويل الكلام والقوانين إلى عملٍ نلمسه على أرض الواقع ! .

ثمّ وضع علامات (x) أمام المباحث التي أوضحتُ فيها أن « الإسلام » بما يحمله من مبادىء ربانية وتعاليم كاملة ، هو المُنقذ لهذا المجتمع الذي نتخبطُ به في دائرة الجهل والتخلف ! .

هنا دار رأسي بشدّة ، وحصلَ عندي تشابك في المعلومات والأفكار ، لولا أني ـ بفضل الله ـ قرأتُ عن هذا وأمثاله ممّن يحرصون كلّ الحرص على الكرسي المهترىء الذي يجلسون عليه ، والراتب الذي لا يكاد يسدّ نفقاتهم ، والمكانة السامية التي يخدعون أنفسهم بها و. . . . .

ثمّ نريدُ بعد ذلك تربية وتعليماً !! نريدُ نهضة وتطوراً وتقدّماً وازدهاراً ! نريدُ عدالةً وحرية ومساواة !! .

كنتُ أتمنى أن يرشدني « الدكتور » إلى نقاطٍ لم أكن أعرفها ، ولا عهد لي بها ، وأُسامح بعد ذلك تكبّره عليّ وعلى أمثالي ، وعدم الاكتراث بهم ، وسوء الاستقبال والضيافة!

أمّا أن يُشير إلى محو النقاط والفقرات والمباحث التي لا يختلف عاقلان بأنّ فيها الدواء الشافي لجميع أسقام الأمّة ، ورشدها وتقدّمها ؛ فهذا ـ والله ـ ما أغاظني وأبكاني ، وزادني من احتقار كل مَن يعتقد أنّ نهضة الأمّة العربية والإسلامية في غير تعاليم الإسلام ، ومبادىء القرآن!

وكلّ مَن ينافق للطواغيت ، فيظن أنّ ابتعاده عن « الإسلام والمسلمين » كالذي (يسدّ الطاقة ويستريح)! .

عجباً لحرص هؤلاء على الدنيا! عجباً لوصولهم إلى هذه الدرجة العلمية الكبيرة بلا عقيدة إسلامية ربّانية! عجباً لهم يأكلون ويتمتعون ، وفي نعيم الله غارقون ، وهم عن الآخرة ساهون! عجباً للذين يتكلمون ويكتبون ولا يعملون! عجباً لمن يضع نفسه موضع المسؤول عن الشعوب ، ثمّ يخون الأمانة عن عمدٍ وإصرار ، وبكلّ ما جُبلت عليه نفسه من شرّ وطغيان ونفاق! عجباً بمن يتلذذ وينتشي بعذاب الآخرين وذلّهم وركوعهم أمامه ، وبكائهم وتوسلهم إليه ، وهو في أخسّ ما يصلُ إليه الآدميّ من دناءة وحقارة وسفاهة وانحطاط وبهيمية!

عجباً لمن يضع قبل اسمه حرف (د) ثمّ لا يحمل صفات رسول الله ﷺ في القيادة والدعوة والرحمة والعطف والمحبة والشجاعة في قول الحق ، دون أن يخشى في الله لومة لائم! .

وإنّ القلبَ ليحزن ، وإنّ العين لتدمع ، عندما نسمع حديث رسول الله ﷺ : « إذا كانَ أُمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سُمحاءَكم ، وأموركم شورى بينكم ؛ فظهر الأرضِ خيرٌ لكمْ منْ بطنها . وإذا كانَ أُمراؤكم شرارَكم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم ؛ فبطنُ الأرضِ خيرٌ لكم من ظهرها » ، [أخرجه الترمذي] .

أغلب حالات التراجع الدراسي ، والتخلف العلمي ، والتسرّب المدرسي ، وحالات الضياع والانحراف والشذوذ ، مردّها الأساسي ، وباتفاق العقلاء ، إهمال الوالدين وجهلهما . والجاهلُ لا ينبغي أن يتصدّر منصباً أبداً ، وإلا جرّ الويلات والمصائب والبلايا على رعاياه!!

والطامّة الكبرى عندما يكون المسؤول عالِماً جاهلاً ، عالِماً بكلّ

مسارب النفاق واللصوصية ، والتملق والرياء ، والمداهنة والتلون ، جاهلاً بأنّ الله تعالى سيحاسبه على الصغيرة والكبيرة ، وعلى النقير والقطمير! جاهلاً بأنّ الأمّة التي تتخذ من « الإسلام » ديناً في قوانينها ، لتضحك على الشعوب وتخدعهم وتستميل قلوبهم وتخدّرها ، ثمّ تضعه في زنزانة لا يرى ضوء النهار ، وتبقيه حبراً على ورق ؛ هي أمّةٌ تخدع نفسها قبل أن تخدع الآخرين ، وتدمّرُ نفسها ، وتسحقُ مستقبلها ، وإنْ تمتّعتْ وتكبّرت وعربدت إلى حين . . . . . .

ثمّ إذا كان علماؤنا ، واليومَ نقولُ : « دكاترتنا » ، لا يُؤثّرون على مجريات الأحداث ، وليس لهم وزنٌ ولا ثقل في النهضة والتقدم ، والدفاع عن العدالة والحرية والمساواة ؛ فلمن نوكِل تلكَ المهمة السّامية المرموقة ، التي تمنحهم وسام (د) في الآخرة أيضاً ، وقد حصلوا عليها في الدنيا؟

وحرف (د) في الآخرة يعني أنّ صاحبه من المقرّبين الأصفياء عند الله ربّ العالمين ، يعني أنّه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . . . .

وشتان بينَ مَن يستميتُ في الحصول على حرف (د) ، ليتقرّب به إلى ملوك الدنيا ، ويُذلّ نفسه ببابهم ، ويريق ماء وجهه أمام انحرافاتهم وتخاذلهم ونفاقهم وجبروتهم وطغيانهم وشذوذهم ؛ وبينَ مَن يتدرّج في مراتب العلم التي لا نهاية لها ، معتمداً على الله في كلّ خطواته ، باكياً بين يدي الله يرجوه التوفيق والثبات والصلاح ، ويسألُه تعالى أن يكون من أهل الحق الذين إذا رُؤوا ذُكِر الله ، وأن يكون علمه وجهده سبيلاً إلى رضوان الله وصلاح العباد والبلاد ، وردّهم إلى الطريق الصحيح ، والصراط المستقيم .

أولئك هم العلماء و« الدكاترة » الذين تحتاجهم الأمّة الإسلامية هذه الأيام العصيبة ، « دكاترة » يُنذرون أنفسهم ، ويُقدّمون أرواحهم رخيصة في سبيل الله ، « دكاترة » ما زادهم حرف (د) إلا قرباً ومحبّة وتضرّعاً وخشية لله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

لا يغريهم الدرهم والدينار ، وإذا كان ولا بدّ ؛ جعلوها في أيديهم لا في صدورهم ، لأنّ القلبَ لا يسعُ إلا محبّة الله والشوق للقائه ، وإذا تعلّق القلب بالدنيا ؛ تلف ومات .

إننا نريدُ « دكاترة » تربي الأجيال على الرحمة والعطف ، تربية إسلامية صادقة ، ولا نريد « دكاترة » تربي الأجيال على ما يربي إبليس عليه أتباعه .

* * *

الــــوالـــــد

إنّ من المواضيع التي يحار القلم في انتقاء ألفاظها وتركيب عباراتها ؛ عندما يهمّ أحدنا في الكتابة هي عن« الوالد » أو « الأب » .

ولو كان الناس ـ كلّ الناس ـ يفهمون لغة الحبّ ؛ لجَمعنا الطيور التي تغرّدُ فوق أغصانها ، والغزلان التي تحنو على أولادها في براريها ، والورود التي تتفتح عن أكمامها ، والقلوب المكلومة التي هجرت محبيها ، والشمس التي تشرق مبتسمةً كلّ يومٍ لتمدّ الكون بنورها وسناها ، و . . . . لتشاركنا كلّها بهذه المناسبة الرائعة ؛ لأنّ معاني الوفاء والبر والإجلال ؛ إنّما تتوارثها الأجيال والأمم منذ أوّل مخلوق حتى قيام الساعة .

ثمّ كيف لي أن أُنصّب نفسي نائباً عن الأولاد والخلائق؟ فهل تتسع معاني اللغات عن الوفاء لِما يُقدّمه الآباء والأمّهات لأبنائهم وذراريهم؟ ! .

إنّي أراني عاجزاً عن تلك المهمّة ، كما يعجز الطفل الصغير عن النطق ، والشيخ الكبير عن الحركة .

لكنّي سأحاول أن أشارك المحبين في حبّهم ، والبارّين في برّهم ، والمؤدّبين في أدبهم ، والطائعين في طاعتهم ، والمتذوقين في ذوقهم ، عسى أن تكون شاهداً لي يوم الرحيل ، ومؤنساً إذا ما غزاني الحنين .

كيف وأنتَ ـ أيها الوالد العظيم ـ جالسٌ في بيت الله تعالى ، ترنو إلى

ذلك العالِم الناصح المرشد ، فلا تكاد تسمعُ قول الحقّ سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

حتى تأخذكَ رعشةُ الخوف من الله ، تنتاب قلبكَ ، وتسري في أوصالك ، ثمّ تنفردُ بنفسكَ تحت الأشجار وفي البراري ، وتسألُ نفسك مراراً :

هل أصبحتُ قادراً على حمل مسؤولية الزوجية؟ أمْ لا زلتُ قاصراً ، أتخوّفُ عثرات الطريق وعقباته؟ .

أيها الشيطان اللعين ، إلى متى تصدّني عن الزواج ، والأيام تمرّ وتنطوي؟ ونداء الإيمان يقول : أقدم وتوكل على الله ، ولا تنِ في طاعته . . . .

الله تعالى قد تكفّل بعون الذي يريد الزواج عفافاً ، فكيف تخاف ، والله معك؟ .

يا ربّ ، « اللهمّ إني أستخيركَ بعلمك ، وأستقدركَ بقدرتك ، وأسألكَ من فضلك العظيم ، فإنكَ تقدرُ ولا أقدر ، وتعلمُ ولا أعلم ، ، وأنتَ علام الغيوب . . . . »[١] .

تزوجتَ أيها الوالد على نورٍ من الله ، فكان زواجاً سعيداً مباركاً ميموناً ، وكان حبّاً على حبّ ، ومودة في رحمة ، فما كدتَ تركنُ إلى بحر الحبّ ، وتستقرّ في بساتين المودة ؛ حتى جاءكَ نداء الغربة والهجرة التي تمزّقُ القلوب ، وتُفجّر العيون ، وتزيد الآهات والحزن واللوعة والأسى ! .

---

(١) أول حديث الاستخارة ، أخرجه البخاري .

وقفتَ عندها حائراً ، تنظر إلى « الوالدة » الحنون المحبّة ، وإلى الجنين الأمل من ناحية ثانية ، ثمّ تنظر إلى الواقع الذي لا يرحم فقيراً ، ولا يعرف قدْر المحبّ ، فيشدّكَ شدّاً عنيفاً ، فتقولُ لزوجتك الحبيبة ـ وقد علقتْ بكَ وعلقتَ بها ـ : سوفَ أهاجرُ وأسافرُ ضارباً في أرض الله ، إن لم يكن من أجلنا ، فمن أجلِ ذلك الجنين ومستقبله وحياته الكريمة! فتتفقا على أن تتجرّعا مرارة الهجرة والفراق من أجلنا ، كما شربتما كؤوس المحبّة قبل مجيئنا .

وما أن ظهرنا على صفحة هذه الدنيا بقدرة الله ؛ حتى حِلْنا بينكما وبين لذّاتكما وهناءتكما ، فقيّدتما حياتكما بنا ، وقطعتما كلّ العلائق السابقة ، وعقدتما عهوداً معنا لا تنتهي إلا بالممات ـ بعد طول عمر ـ! .

كم كانت فرحتنا كبيرة عندما كنّا نسمع صوتَكَ من وراء الباب ، فنركض مسرورين نترامى بين يديك لتحملنا وتضمّنا إلى صدرك ، وقد أعياك التعب ، وأضناك تحصيل لقمة العيش لنا ، فتزول عنّا وحشة غيابك ، كما يزول عنك النصَبُ لمرآنا . . . .

كنت تؤثر ـ رغم الإرهاق ـ أن تجلس بيننا ، فتعلمنا وترشدنا وتنصحنا ، فإذا ما صليتَ العشاء ؛ استسلمتَ للنوم وأنتَ بجانبنا ، فلا نمسك شفاهنا عن تقبيلكَ بعد المنام ، كما لثمتْ خديكَ قبله . . . .

وعندما كبرنا ـ وقد أكلنا شبابكَ ، وأضعفنا قوتك ـ وقفَ الشيطان اللعين موسوساً بأن ننفرَ منكَ ونهملكَ ، ونتركَكَ ونلفظك ، لكننا ـ وقد أخلصتَ فينا العهد مع الله ـ طردناه شرّ طردة ، ولعنّاه وسلّطنا عليه سهام الدعاء ، فولّى مهزوماً مدحوراً ، كما فعلتَ معه يوم حاول صدّكَ عن الزواج لتكونا سبب وجودنا في هذه الحياة ! .

فجـزاكمـا الله خيـراً أيهـا الـوالـد العـزيـز ، وأيتهـا الـوالـدة

الحنون . . . . إننا لا ولن نستطيع أن نوفيكما ما تستحقانه ، فذلك معلّقٌ بقدرة الله ، وعظيم عطائه ، وجليل امتنانه وكرمه ، لكنْ ، اعترافاً بسيطاً بجميل ما قدّمتماه لنا ، أن نكتب عنكما ولكما ، ونحملْكما عند الكِبَر كما حملتمونا في الصّغر .

ومن بديع ما قرأتُ عن برّ الأبناء للآباء في كتب التاريخ الإسلامي ، « أنّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قدِم على سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان شيخاً عجوزاً ، فرحّب به « عمر » وأجلسه قريباً منه ، وسأله عن شأنه ، فشكا له فقره وسوء حاله بعد غياب ابنه « كلاب » .

فقال له عمر رضي الله عنه : وأين ذهب ابنك ؟ قال : خرج مجاهداً تحت راية « سعد بن أبي وقاص » رضي الله عنه ، وقد بكيتُ عليه حتى ذهب بصري ، وكلَّ جسدي ، وضعفت قواي .

فلمّا سمع « عمر » رضي الله عنه قصته ؛ رقّ لحاله ، وبكى توجّعاً ، ثمّ كتب من فوره إلى أمير الجند أن يبعث إليه « بكلاب » هذا .

فأرسله « سعد » إلى المدينة ، فلمّا دخل على « عمر » ؛ قال له : بلغني أنك كنت بارّاً بوالدك ، فما بلغ من برّكَ بأبيك ؟

فقال « كلاب » : يا أمير المؤمنين ، إني كنتُ أكفيه كلّ أمره . فقال « عمر » : يا « كلاب » ، وما أحبّ شيء كنتَ تلقاه به ؟ قال : كنتُ أعمدُ إلى أسمن ما في الإبل ، فأغسلُ أخلافها ، ثمّ أسقيها وأريحها وأتركها حتى يبرد اللبن في ضرعها ، ثمّ أُحضر إناءً نظيفاً فأحلب له وأسقيه حتى يكرع ، فلا يرجع عن فمه الإناء ؛ حتى يتجشأ شبعاً .

فتعجّب « عمر » رضي الله عنه من قوله ، ودُهش من برّه بأبيه ، وقال « لكلاب » : كن هنا في صمتٍ حتى أُرسل إليه ليحضر هنا ، وافعل به

ما كنتَ تفعله معه قبل خروجك إلى الجهاد ، فإني أُحبّ أن أرى برّكَ بأبيك ، وأشهده بعيني رأسي .

ثمّ أرسل « عمر » رضي الله عنه إلى والد « كلاب » فجاء إليه وقد ضعُف بصره ، وانحنى ظهره ، وارتعشت يداه ، فقام إليه « عمر » ورحب به ، وأجلسه إلى جواره ، ثمّ سكت عنه قليلاً والتفت إليه وقال :

كيف أنتَ يا أبا « كلاب » ؟ قال : يا أمير المؤمنين كما ترى ، ضعفاً على ضعف ، ووهناً على وهن ، وشوقاً مبرحاً إلى رؤية « كلاب » ! !

فقال له « عمر » : هل لكَ حاجة تشتهيها؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أشتهي أن أرى « كلاباً » قبلَ أن أموت ، وأضمّه إليّ ضمّةً حانية .

فتأثر « عمر » رضي الله عنه وقال له : ستبلغ ما تريد إن شاء الله . ثمّ أشار إلى « كلاب » أن يُحضر له اللبن الذي كان يُعدّه له ، وأن يصنع به مثل الذي كان يصنعه .

ففعل « كلاب » وأحضر اللبن بالطريقة التي كان يُحضرها ، ثمّ أعطاه « لعمر » (فأرسله « عمر » بدوره إلى الشيخ ، وقال : اشرب لبناً يا أبا « كلاب » ، فأقبل على الإناء يعبّ منه عباً ، حتى إذا شبع رفع فمه عنه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إني أُحسّ شيئاً عجيباً ، فقال « عمر » رضي الله عنه : وما ذاك يا شيخ؟ فقال : أُحسُّ صنيع ولدي « كلاب » وريح يديه في هذا الإناء ، ولقد برّح بي الشوق يا أمير المؤمنين ، ثمّ هطلت عيناه ! ! .

وعند ذلك رقّ له « عمر » رضي الله عنه ، وقال : يا شيخ ، هذا « كلاب » أمامكَ ، فاحتضنه ، فجعل يضمه إلى صدره ضمّاً ، و« عمر » ينظر إلى هذا الحنان والحبّ المتدفق ، ثمّ قال رضي الله عنه :

يا « كلاب » ، الزم خدمة أبيك ، ورزقكَ جارٍ عليك كما لو كنتَ تجاهد في سبيل الله .

فشكر أبو « كلاب » « عمر » ، ودعا له بخير ، ثمّ قال « عمر » رضي الله عنه : أكنتَ تناديه يا أبا « كلاب » قبلَ أن يجيء إليك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، لطالما ناجيته في خلوتي ووحدتي ، فقال له : فماذا كنت تقول؟ قال : كنتُ أقول :

لمن شيخان قد نشدا كلابا ... كتاب الله لو قبل الكتابا
أناديه فيعرض في إباءٍ ... فلا وأبي كلاب ما أصابا
وإنكَ والتماس الأجر بعدي ... كباغي الماء يتّبعُ السّرابا
تركتَ أباك مرعشةً يداه ... وأمّكَ ما تسيغ لها شرابا
إذا نعب الحمامُ ببطن وجٍّ ... على بيضاته ذكرا كلابا

فلمْ يفرغ من قوله ، حتى أبكى « عمر » رضي الله عنه وجميع الحاضرين ، ثمّ انصرف والجميع ينظرون إليه ، وكان حديث المدينة حيناً من الزمن عن « كلاب » وأبي « كلاب »[1] .

* * *

---

(1) « الإصابة » لابن حجر العسقلاني رحمه الله . ج١ص١١٥-ج٥ ص٦١٥ ، بتصرف .

خـاتمـة

في الوقت الذي نرى فيه انحدار القافلة عن مسارها الذي رسمه الله تعالى لها ـ وهذا لا شكّ خطرٌ كبير ، وضلالٌ مفزع ـ نوقنُ أنّ في الأمّة الإسلامية المحمدية رجالاً يتحركون بنور الله ، باعوا كلّ متع الدنيا وشهواتها ، ورموها وراءهم ظهريّاً. . . . . . نَفَسهم التسبيح ، وكلامهم الحقّ والتكبير ، لا يضرّهم مَن خذلهم حتى يأتي نصر الله. . . . .

هؤلاء هم الذين سيحوّلون طريق القافلة إلى مساره الصحيح ، بثباتهم على مبدأ الإسلام ، وأركان الإيمان. . . . . لكنّها سنواتٌ يبتلي الله الناس ليميز الخبيث من الطيب ، والصادق المخلص ، من الكاذب المنافق. . . . . .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف : ١١٠] .

لذا ، فهذه دعوة للمسلمين جميعاً مهما كانت مسؤولياتهم ، من الكبير حتى الصغير ، أن يعودوا إلى الإسلام ، ويحضروا مجالس علمه ويدرسوه ، فإنّ به عزهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة. . . . . . وألا يكتفوا بالاسم والقشور ، والسفسطة والفلسفة بما تمليه عليهم عقولهم التي تستمدّ مددها من « الفلوس » التي تملأ جيوبهم وأرصدتهم. . . . . . !! .

إنّ في أمّة الإسلام خيراً كثيراً ، وبركة لا تنقضي . . . . . . فالحذر الحـذر . . . . والعـودة العـودة . . . . والـرحمـة الـرحمـة يا عباد الله .

* * *

المحتوى

الافتتاح ٥
مقدمة ٧
رسالة من طفلتي التي لم أرها بعد ١١
الجواب ١٣
الشهيد عبد الله عزام ٢١
صمود وإباء وبكاء ٢٩
« ماكدونالدز » وأسواق الملابس ٣٥
الجفاف ٤١
أحاديث نبوية مشرقة ٤٩
الكرم ٥٣
مركز تجاري ٥٩
مختارات شعرية ٦٧
دكتور ولكنْ ٦٩
الوالد ٧٧
خاتمة ٨٣
المحتوى ٨٥